



ليالي الحرب

د. أحمد زياد الحموي

ليالي الحرب

ليالي الحرب

د. أحمد زياد الحموي

د. أحمد زياد الحموي

تستعرض لكم دار نسمات الأدب للنشر

الإلكتروني بعزيمة وإبداع جديد

الكتاب : رواية

المؤلف: د. أحمد زياد الحموي

غلاف الكتاب: منى وجيه

مؤك اب الكتاب: جيهان سمير

تنسيق داخلي: سها منصور

إدارة الدار: رزان محمد كليب

مع نسمات الأدب، أفكارك تنبض بالحياة!

نسمات الادب للنشر الإلكتروني



(رُبَّمَا كَانَ الْحُبُّ عَمِيقًا لَكِنَّهُ لَمْ يَكْفِ
لَكَ يَقِفَ أَمَامَ قِسْوَةِ الْحَرْبِ الَّتِي
أَتَتْ بِرَايَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَطْ وَهِيَ الْفِرَاقُ)



(إهداء إلى كل شخص عاش مع ألم
الفقدان بسبب الحرب)

نسمات (الأدب)
للنشر الإلكتروني



مقدمة

العراق أو بالاسم الأجل (بلد الرافدين)
من أجل البلاد التي يمكن أن يعيش
فيها المرء في الفترة الراهنة قبل أن
تشهد هذه البلاد ما يضعف من قوتها
وصلابتها ويجعلها تستنزف أجل ما
فيها، هو الأمر الذي هدد في انتشار
جائحة الحرب بها، بحروب تتالت خلف
بعضها البعض حتى انتهت بخيانة الحياة
لنفسها في بلدي، سميث تلك الحروب
(حروب الخليج الثلاث)، الثلاث التي
جاءت لتجهض الحلم العربي الذي
عاشته العراق متفردة به جاعلة هذا
الحلم واقعاً يعيش شعبها به.



لم تكن القصة التي عاشتها هذه البلاد
أمرًا أرادتُهُ، حتى التوقع بحدوثِ الحرب
لم يكن في مضمون تفكيرِ الشعبِ
العراقيِّ لكنهُ بدلَ الحربِ الواحدةِ عاشَ
ثلاثة حروب فرضتْ عليه في الفترة
الراهنه بين سنواتِ عاشَ فيها أسوأ ما
يمكنُ للمرء أن يعيشهُ من فقدانٍ، ألمٍ،
قلقٍ، وخوفٍ من القادم لكن هذا لم يجعل
في قلوبهم أية ذرة من الضعف بل
مارسوا دورهم بكل قوة حتى النهاية.

شهدت منطقة الخليج العربي ثلاثة
حروب مدمرة وقعت في الأراضي
الإيرانية، الكويتية، والعراقية.

بين شهر أيلول عام ١٩٨٠ وشهر
أغسطس في عام ١٩٨٨ حدثت حرب



الخليج الأولى التي أطلق عليها أيضاً
(الحرب العراقية الإيرانية)، الحرب التي
كانت تكلفتها غالية جداً (أكثر من مليون
قتيل وخسائر مالية تجاوزت الـ ٤٠٠
مليار دولار، الحرب التي كانت أطول
نزاعٍ عسكريٍّ في القرن العشرين).

لم ينتهي الأمر في نهاية العام ١٩٨٨
إلا أنها كانت فترة مؤقتة قبل أن تأتي
حرب الخليج الثانية في تاريخ
١٩٩٠ (الحرب العراقية الكويتية)، لم
تكن لي حصة كبيرة في حروب العراق
الأولى والثانية سو أخذهما أشخاصا لهم
حصة كبيرة في حياتي، كوالدي الذي
كان عميدا في الجيش العراقي الذي
استشهد في الحرب الأولى، ووالدتي



التي كانت ممرضةً في أحد المشافي العسكرية والتي استشهدت أثناء الحرب الثانية في حادثٍ مفاجئٍ حدث في أثناء ذهابها في سيارةٍ عسكريةٍ إلى أحد المستشفيات في بغداد، ربما لم يكن ذلك الحادث بسبب الحرب لكنه حدث في ذلك الوقت مما جعلني لا أحاول بعدها سوى الاعتياد على العيش حاملاً بداخلي ذلك الألم والشوق الكبير.

جاءت بعدها الحرب الثالثة لتعطيني الجزء الأكبر من حصتها آخذةً تكلفتها الجزء الأكبر مني، سميت (حرب الخليج الثالثة) التي حدثت بتاريخ ٢٠٠٣ واسمها الثاني (حرب العراق)، الحرب التي أعلنها الرئيس الأمريكي



حينها على العراق، بدأت عملية غزو العراق بتاريخ ٢٠٠٣/٣/٢٠ من قبل قوات الائتلاف بقيادة الولايات المتحدة التي انتهت رسميا بإنزال العلم الأمريكي في بغداد بتاريخ ٢٠١١/١٢/١٥ بعد أن تم إسقاط نظام الرئيس العراقي وأدت إلى إعدامه، الحرب التي جعلت بين بدايتها ونهايتها: ليالي الحرب.



الفصل الأول

٢٠ آذار ٢٠٠٣

نسمات الادب

للنشر الإلكتروني



في أحد البيوت القروية على أطراف
مدينة تكريت من دولة العراق، كنا
نسكن فيها أنا وليال وابننا الصغير، لم
تكن هذه القرية هي مكان ولادتي أو
نشأتي لكنني أحبها، ربما لأن ليال بها،
أقول دائماً بفضلها:

- ما أجملك يا قريتي!

هكذا كان حبي يعلن ذاته على كل شيء
حين تكون حبيبتني هنا، التي كانت
كالورد تعلن ذاتها في حديقتي، القمر في
ليليتي، الهواء العطر في خنقتي، الراحة
في ضيقتي، شمع ظلمتي، ووطن
غربتي، برأيي كل ما يشبه الورد الذي
يحب، وبهذا أشبهك أنا يا أميرتي، هذا
التاريخ كان يوم إجازتي حيث أنه قد



مضى الكثير من الأيام التي لم أنم بها
جيداً لذلك أخذتُ إجازةً في هذا اليوم
الذي استيقظتُ فيه في الساعة الثانية
ظهراً، نهضتُ، غسلتُ وجهي الذي عاد
له لونه الطبيعي، سمعتُ حينها ليلاً
تتادي لي من أجل الغذاء الذي كان
حينها فطوراً بالنسبة لي، بعد انتهائنا
في حدود الساعة الثانية وأربعون دقيقة
سمعنا أن القذائف قد هطلت على بغداد
منذ عشرة دقائق، هنا علمتُ أن قليل من
الحياة جمعتنا ثم جاءت الحرب لكي
تُطفئ وهج تلك الشمعة التي تضيئنا،
تجعل ذلك الدفء بيننا بارداً، الورد
يذبل، القمر يغيب، الهواء يتوقف عن
رحلته، تجعل الوطن يغترب في ذاته،



حيثُ في تلك المدينة تسكنُ عائلةُ ليالٍ،
تلك المدينة التي بدأت فيها ليالي الحرب
اختلافُ الحركة في الـلام الأخيرة من
اسم زوجتي ليالٍ والأخيرة من ليالي
(ليالٍ الحرب) كالاختلاف بين الموتِ
والحياة، جاءنا هاتفٌ حينها لنعلم أن
لغة الحرب أصابت هذه المدينة الجميلة
التي تبعدُ عن قريتنا الصغيرة ساعتين
ونصف (أقل قليلاً أو أكثر) تبكي تحت
قذائف وطلقات الحرب، وأن أخاها لمن
تملك قلبي قد مات ضحية هذه الحرب
في انفجارٍ حصل في أحد المنازل الذي
كان يجتمع فيه أناسٌ لهم قدرهم في تلك
المدينة، ومنهم والد ليالٍ أيضاً الذي
أصبح يصارع الموت بعد أن أُصيب في



هذا الاجتماع ويحتاج للعلاج بشكل
فوري، ليس هو فقط بل الكثير من
الناس في تلك المنطقة، ورغم وجود
عددا لا بأس به من الأطباء والأدوية في
ذلك الوقت إلا أن ذلك كان مؤقتا فقط،
حينها بعد سماع هذا الخبر، في وسط
الغرفة ليال تبكي، باكياً على من رحل،
خائفة على من بقي بين خط الرحيل
والعودة، اقتربت من حبيبتي، احتضنتها
وهمست:

- أعرف يا حبيبتي أن البكاء في هذه
اللحظة أمراً طبيعياً لكنني لا أحتمل
رؤيتك هكذا، قطرات الدموع هذه أفني
حياتي كي لا أرها تنزل من عينيك
حزينة.



- لم يعد يمكنني رؤية أخي ولا أدري إن كنتُ سَأرى والدي كيف تريدني أن أهدأ؟
كيف أطفئُ النارَ التي بداخلي وأنا لا أعلمُ ما الذي سيحدثُ بعد هذا الألم، إنَّ هذا الأمر يقتلني من الداخل، أتفهم ذلك؟

- ربما لا أفهم ذلك لأنني لا أشعرهُ مثلكِ لكنني أشعرُ بالألم أكبر حين رؤيتكِ هكذا، أنا أعلم أنه من الطبيعي أن تتألّمي، ولا أعرف كيف يمكنني الصمودُ أمام دموعكِ أو طريقةً لإطفاء تلك النار التي داخلكِ لكن لن ينفع سوى أن تبكي قليلاً وتعانقيني ربما يهدأ الألم قليلاً.

- كنت مشتاقةً لكي أراهم في هذا العام يا حبيبي لكنني لم أعد أستطيعُ فعلَ ذلك،



لقد سبقوني إلى الأعلى وتركوني في
هذه الحالة البائسة.

- حبيبتي أنتِ إنسانة مؤمنة، هذا قدرهم
ولا يمكننا تغيير شيء ثم أنك الآن
تحكمين على والدك بالسوء وهو مازال
على قيد الحياة.

- لا قدر الله أن يحصل له شيء، الحمد
لله على هذا، يا طيبي لم يكن نواحي
إنذاراً للسوء إنما فقدان للأمل، ألم تسمع
أن أمر علاجه بعد أمر الله محصور
بوجود طبيب ودواء مداومين عليه أربعاً
وعشرين ساعة؟ برأيي لن يجد أحداً
يخاف عليه أو يعتني به هكذا، وأنا هنا
مقيدة ذراعي لا أعلم ماذا أفعل.

- إذا سأذهب يا حبيبتي.



- إلى أين؟! هل

- إلى بلدتك يا ليالٍ، سأمضي في طريقي
غداً، والدك يحتاج طبيباً حتى لو كان
هناك ألف طبيب سأذهب إليه، لا تقلقي
سأعود قريباً وعائلتك معي وأحضر
غرضاً لأخيك الشهيد كي تنظري إليه
وتشتمي رائحته وتحتضنيه، لأن من
نحبهم يرحلون دون موعد فلا يبقى لنا
منهم سوى أشياءهم والذكريات، لن أطيل
الكلام يا حبيبتي، سأذهب لتحضير
أغراضي وبعض الأدوية التي سأخذها
معي.

- لكنني خائفة عليك يا طيبي، أخاف أن
تذهب بدون عودة ولا يبقى لي شيئاً منك
سوى ما ذكرت.



- لا تخافي يا حبيبتني، قال لي أحدهم ذات مرة (حروف الألم ذاتها حروف الأمل) ويتوجب علينا الآن أن نعيش الاثنين معاً حتى نصل إلى غايةٍ تحقق أحدهما معاً، ربّما يكون الموت في الطرف الذي أنا ذاهبٌ إليه لكنّ الموت أهون ألف مرّة على قلبي من رؤية دموعك الحزينة تلك.

- حسناً يا حبيبي لكن يجب أن أذهب معك، لا يمكنني الجلوس هنا في حلقةٍ من القلق والتفكير المتواصل.

- حبيبتني سيزول الألم، يمكنني المخاطرة بروحي لكنني لا أستطيع فعل ذلك بك أنتِ وابني، بقائكم هنا يساعدي



أكثر، رغم أن السفرَ والبعدَ عنك
سيؤلمني لكنه الأمرُ الأصح.

رُغم أنني لم أفكر فيما أفعله أو سوف
أفعله لكنني كنتُ متيقناً بأنني ذاهبٌ في
خيارين إما الحياة أو الموت، لم تكن
الخيارات هي الصعبة بل نسبتهما، كانت
نسبة الموت خمسون بالمئة والنسبة
الباقية ربما كانت للعودة لكن لا بأس،
هذه المعادلة ستصبح مئة بالمئة لخيار
الحياة إن كانت من أجل ليالٍ، حتى وإن
كان الموتُ في طرفها، سيزول الألم.

حلَّ الليل ونامت ليالٍ بين ذراعيّ، لم
تكنُ لدي القوة كي أتركها، استمررتُ
بالنظر لها حتى نمتُ قليلاً معها ثم جاء
الصباح، كنتُ مضطراً للمغادرة في هذا



الوقت، لم يكن لي قلباً على إيقاظها لذلك
تركْتُ قبلةً على جبينها وعلى جبين ابننا
ثم غادرت، لم تتركني ليالٍ، كانت صديقة
طريقي صورةً سرقَتْها من ليالٍ وهي
نائمة ووضعتها على مرآة سيارتي لأن
ليالٍ كانت بالنسبة لي هي المرآة في
طريقي وأحببتُ بفعلتي ذلك أن أراها على
ما تركتها عليه في آخر مرةٍ لنا معاً لكن
وجود صورتها معي لم يكفني للتوقف
عن تخيلها، أقودُ سيارتي وأنا أرى
انعكاسَ صورتها أمامي فأستمرُ بالقيادة
وكان من سَأصلُ إليه في النهاية، ليالٍ،
مضت ساعاتٌ على الطريق وأنا احدثُ
حبيبتي في غيابها الحاضر معي:



- ها أنا على حدود بغداد يا حبيبتى،
دخلتُ إليها بحجة مهنتي لأن الدخولَ
إليها لم يكن سهلاً، تلك المدينة الممتلئة
بصوتِ الصواريخ، الانفجارات
والرصاصاتِ التي تتطايرُ في كلِّ مكان،
لا أعلمُ من ستقتلُ، هل طفلاً ستبكي
والدتهُ ووالدهُ عليه؟ أم ستجعلُ ذلكَ
الطفلَ يتيماً؟ ما يملأُ تلكَ المدينة الدم،
جثثاً مرميةً في الطرقاتِ بعضهم كان
مدنياً وبعضهم عسكرياً، ما آثار
استغرابَ قلبي هو السؤال الأول: ألم
يجدو من يحملهم؟!، والسؤال الثاني:
هل هذا الوقت القصير جداً يكفي ليحصلَ
فيه كل هذا الموت؟! أه يا ليالِ على
مدينتك إنها تنزفُ بجروحٍ عميقة لا أعلم



إن كنتُ سأستطيعُ إغلاقها لكنني
سأحاولُ ذلك، أعدكِ يا أميرتي، كنتُ
أقودُ قيادةً سريعةً لأن الذين ساعدوني
في الدخولِ حذروني من خطرِ الموت،
الأمر الذي كان سببَ مجيئي أصبحَ أولَ
تحذيرٍ لي، هل سأعودُ لكِ يا ليال أم أن
ليلتنا الماضية كانت الأخيرة؟

أرسلوا معي جنديًا من أجلِ إيصالي بعدَ
أن أنهى علاجِ والدِ ليالٍ إلى الأماكن
التي يجمعون فيها المصابين لعلِّي أجدُ
لدى بعضهم جروحًا أسعى بها لتحقيقِ
وعدي الذي وعدتهُ لليال، كانت قد غابت
الشمسُ تقريبًا عند وصولي إلى داخلِ
المدينة، ضللتُ حينها الطريقَ قليلًا، هل
هنا البيت؟ لم أعد أعرفُ أين، لقد تغيرَ



كل شيءٍ منذُ زيارتي الأخيرة ثم فجأةً
هبطتُ قذيفةً أمامي جعلتني أقفُ وأنظرُ
من نافذتي على جانبِ الطريقِ فإذا برجلٍ
مصاب، أخذتُ حقيبتَي وحاولتُ النزولَ
مسرّعًا، حاول الجندي الإمساكَ بي
ومنعني من النزولِ قائلاً لي:

- الرجل سيموت، أما أنت فلا يجبُ أن تموت.

أخبرته أنني عندما أتيتُ إلى هنا، أولُ ما
فكرتُ بهِ هو عدمُ موتِ الناسِ
والمحاولة في ذلك، وآخر ما فكرتُ بهِ
هو موتي أنا، ثم أمسكتُ حقيبتَي ونزلتُ
مسرّعًا وذهبتُ إلى الرجلِ بينما الجنديّ
بقيَ داخلَ السيارة، عندما وصلتُ كانت
كلماتُ هذا الرجلِ الأخيرة هي:



- اذهب، اهرب من هنا، إنها مدينةُ الموت لا حياةَ فيها حتى إن كنتَ حي فأنْتَ لستَ كذلك، اذهب.

ثم مات بين ذراعيّ تارگًا عيناها مفتوحتين، أغمضتُ عينيّه، سألتُ نفسي بحزنٍ عميقٍ يحفرُ داخلي:

- "كم من شخصٍ ماتَ مفتوحَ العينين هنا بغضونٍ بضعِ ساعاتٍ فقط؟ وما معنى الهروبِ إن كان القاتل هو الموت؟ ماذا حدثَ هنا؟ في أي حالٍ أصبحنا يا إلهي؟"

قبل أن أعودُ إلى سيارتي هبطتُ قذيفةً أخرى عليها دمرتها، وقعتُ على الأرض من ضغطِ الانفجار، كان كلُّ ما أسمعُه حينها هو صوتُ جرسٍ داخل أذنيّ يهدأ



شيئاً فشيئاً، قد كنتُ أنا قبل قليل داخل
هذه السيارة، والجندي يحاول إبقائي،
سؤالاً واحداً خطرَ في بالي حينها:

- "هل موتُ هذا الرجل أنقذَ حياتي؟!"

لكنني أنا من جئت لفعل ذلك، وها أنا
بقيت وحيداً مجدداً، حينها جاء صوتُ
ليالٍ بداخلي مسرعاً ليخبرني أنني لستُ
كذلك، نهضتُ، يجبُ أن أصل إلى والدِ
ليالٍ، أمشي على جانب الطريق حتى
أصل إلى الشارع الأخير الفاصل بيني
وبين منزل ليالٍ، أجبتُ نفسي:

- "نعم هذا هو المنزل، في الجهة
الأخرى من جهتي"



ثم حصلَ اشتباك قبل أن أقطعَ هذا
الشارع، اضطرت أن اختبئَ في أحدِ
المنازلِ المهجورة، لم أعلم من الطرفانِ
حينها لكنني تمنيتُ عدمَ طولِ المدة
الزمنية التي سيستغرقها هذا النزاع.

- آه يا ليالٍ إن الفاصلَ بيني وبينَ منزلكِ لم
يعد الطريقُ فقط، أصبحت الحرب تتحدى
وصولي قبل الموت لتجعلني خلفه دائماً.

استمرَّ الاشتباك عدة ساعات حتى حلَّ
الليل، لم تمضي تلكَ الساعاتُ بسهولة،
كانت تملأُ بين لحظاتها الكثيرَ من
الراحلين، تمنيتُ أن لا يكونَ والدَ ليالٍ
بينهم، ربما كنتُ أنانيًا بذلك لكنني كنتُ
أرى أنَّ الجميعَ هنا والدَ ليالٍ، ربما كان
في المنزلِ بعضُ الجثثِ لكنهم



استقبلوني رغم موتهم، قد تنفست معظم
الوقت رائحة جثث، أنا أعرف هذه
الرائحة جيدًا، ماذا فعلوا أصحاب هذا
المنزل حتى يُقتلوا بهذه الطريقة ياربي
لكن بالتأكيد لك حكمة في ذلك يا الله
وليس لي خلاف في حكمك، كان قد
ساعدني منديلاً كنت قد أخذته من ليالٍ
فيه رائحتها (عطر العود والياسمين معاً)
ثم أخرج بعد ساعتين من جلوسي في
هذا المنزل المهجور لكي أجتاز هذا
الطريق الذي شعرت وكأنه كان كالحدود
بين دولتين تفصلهما نزاعات الحرب تلك
لكن صمت الليل جاء كافياً ليجعل هذا
القتل الذي يحدث هنا صامتاً ولو حتى
قليلاً.



- "ها أنا أمشي في مدينتك يا ليالٍ،
أمشي بهدوءٍ تام، أشتم رائحةَ عطرِكِ
تفوح في جميع أرجاءِ هذه المدينة رغم
أن رائحةَ الموت كانت السائدة هنا،
أسمع صوت الهدوء تليه الأصوات التي
تأتي من بعض المنازل، بعضهم حيّ،
ومنازلُ أخرى يعمُ فيها البكاء، ومنازلُ
قد دُمُرت وأصحابُها ذهبَت، ما الذي
أذهبَ أهلك أيتها المنازلُ الفارغة؟ أليس
لنا أن نموت من بعدهم؟ جميعهم من
عائلتنا العربية، أخًا، أختًا، أمًا، أو أبًا،
جميعهم من عائلةٍ واحدةٍ هي العراق،
هل فرغت الأسباب التي تُبقي أفرادَ هذه
العائلة؟ أم كُثرت التي جعلتهم يذهبون؟
نعم هذا هو المنزل، لقد وصلتُ يا ليالٍ،



ها أنا على باب منزلك بعد عشاء يوم
كاملٍ من الحرب، لا أعلم من سيفتح لي
هذا الباب حين أطرقه الآن، كنت قد
اعتدت أن تكوني أنتِ يا ليالٍ.

طرقتُ البابَ مرتين، فتحت لي فتاة
صغيرة ثم هربت إلى الداخل، هل هربت
من الخوف؟ ربما، قد امتلأ قلبُ كل من
هنا بالخوف من أي شيء لكن لدي أمل
بأن الألم سيزول، دخلتُ إلى الداخل
أنادي لكي يعلم من في المنزل أنني هنا،
ثم جاءت نسمة أُختُ ليالٍ لتستقبلني
فرحةً برويتي:

- أهلاً بك يا صهري، ادخل من الخارج
بسرعة، الخارج مظلمٌ كثيراً.



- أهلاً بكِ يا نسمة، لا فرقَ لي بين
الداخل والخارج، كلُّ الأماكن مظلمة
بالنسبة لي في غياب ليالٍ.

- والله من بعد ما عرفناكِ علمتُ أن
هناك من يحبُّ ليالٍ أكثر من والدتي
رحمة الله عليها لأنه لا يمكنك قول شيء
إن لم تكن ليالٍ بهِ أليس كذلك؟ أهلاً بكِ
يا طيبينا في منزلنا، تفضل بالدخول هيا.

- رحمة الله عليها، بالتأكيد لا يمكنني
لأن ليالٍ أساسٌ كلامي دومًا، أهلاً بكِ يا
نسمة لكن هذه الكلمة لليالٍ لكن لا بأس
سأسامحك إن أحضرت لي كوبًا من
الماء بينما أخلعُ حذائي الذي أكل
الطريق نصفه.



- حسنًا، انتظرني قليلًا في الداخل
وسأحضر لك هذا يا صهري.

بعد أن أحضرت لي كأسًا من الماء قلتُ بداخلي:

- "آه يا ليالٍ لو تعلمين كيف شعرتُ عندما
نظرتُ لكوبِ الماء هذا كأني كنتُ مسجونًا
عشرون عاما ثم أخذتُ حُرّيتي."

أشربه وقبل أن أنهيه تقول لي نسمة:

- إن أكوابَ الماء لدينا معدودة.

كنتُ سأخرجُ قلبي بسببِ سعالِي عندما
نطقْتُ هذه الكلمة، نعم هذه نسمة كثيرةُ
الكلام لكن قلبها جميل، أعطيتها كوب
الماء وقلتُ لها:

- أين عمي يا نسمة؟ ومن هذه العائلات؟



- لا تهتم إنهم جيراننا من الحي الثاني
تدمر منزلهم لذلك يبقون هنا في هذه
الأيام، ادخل للداخل عمك في غرفته، لقد
نام قبل قدومك بعشرة دقائق.

أدخل للداخل فأرى عمي مستلقيًا بوجهه
أبيض، أقترّب منه، أضغ سماعتي على
قلبه، إنه الصمت من جديد لكنه في جهة
الموت الآن، نظرت إلى ذراع عمي لأرى
ورمًا أحمر كبير، وعندما قمت بقياس
حرارته وجدت أنها مرتفعة جدًا، ذهبت
إلى نسمة وسألتها هل أتى أحدًا قبلي
وأعطاه شيئًا، أخبرتني نسمة أنه قد جاء
طبيب منذ عدة ساعات وحققه بحقنة
كزاز وذهب مسرعًا، عدت إلى الداخل
وحاولت الضغط عدة مرات على قلبه



لكنني كنتُ خلفَ الموتِ مجدداً، الذي
سبقتني ليأخذَ عمي مني لأن عمي لديه
حساسيةً عالية، لابد أن هذا الأمر سرعَ
من موته تحت مسمى انتشارٍ كثيراً في
عالمنا وهو (الخطأ الطبي)، لم أستطع
حينها فعلَ شيء سوى عيني التي ذرفت
دموعها حينها، لم يكن سهلاً ما حصلَ
في هذه اللحظة لكن كيف ستكون
اللحظات التي بعدها؟

- "آسف يا ليالٍ، لقد خنتُ الوعدَ الذي
وعدتك إياه، كيف أقول هذا لك؟ إن
والدك قد ماتَ قبل قدومي بعشرة دقائق،
عشرة دقائق كافية ليموتَ فيها الكثيرُ
من اللحظات، الأمل، الضحكات،
والأشخاص، أصابحت لا أم، لا أب ولا أخ



حتى إن قلتُ لكِ أنا عائلتكِ كلها لن يكفي
هذا لكي يطمئنَ قلبك، لا يمكن للوقت أن
يُنسي هكذا ألم لكن سيمضي يا حبيبتي،
وأنا قربك سأحاولُ ذلك في كل وقت."

أخرجُ من تلكِ الغرفةِ لأجد نسمة في
سؤالٍ مباشرٍ، كان سؤالها كالماءِ الباردِ
في منتصفِ الشتاء، سألتني ذلك السؤال
مع بحةٍ صوتٍ وعينٍ دامعةٍ، هل شعرتَ
بشيء؟

فقلتُ لها: هل يمكننا الشعورُ بموتٍ من
نحب؟ كأنَ لهم في قلبنا أحدَ الشرايين،
إذا ماتوا توقفَ الجريانُ بها لنشعر أنا
هنالك شيئاً بداخلنا تغير أو بالمعنى
الأصح توقف، أنا آسف يا نسمة لكن
سيزول الألم.



- هل مات والدي؟

- جميعنا سنموت يا نسمة، الله فقط من يختار متى سيحصل ذلك، الصبر يا نسمة هذا قضاء الله والعمر لك.

- ونعم بالله، لا اعتراض على حكمه، لا اعتراض.

لم أظهر لنسمة سبب وفاة والدها أو الذي سرع من ذلك الأمر هو الطبيب الذي أتى قبلي، كذلك لم تبدي نسمة أمامي أية دمة أو شيئاً يدل على حزنها لكنها هربت لتبكي بصمت وهي تعانق والدها، أنظر إليها بقلب محروق، كانت تعانقه بشدة وتبكي قائلة له:

- رحلت باكراً يا حبيبي، رحلت باكراً يا أبي، أبلغ والدتي وأخي مني السلام،



موعدنا في الجنة بإذن الله، سأشتاق لك
كثيرًا يا أبي، سأشتاق كثيرًا.

أه يا نسمة، كم كمية الحزن التي عاشت
بك خلال بضعة أيام فقط، في مثل هذه
اللحظات لا يمكننا فعل شيء سوى
الحزن في ذلك السجن الانفرادي داخلنا،
أن نتدمر بشكل مؤقت، لكن القنبلة
تتدمر عندما ينتهي توقيتها، أما نحن في
أول لحظة من التوقيت يبدأ ألف دمار بنا
نتدمر مع كل لحظة تمر ثم نبني أنفسنا
من جديد، نللم حطامنا من أجل من
نحب، فالحب هو خير في تفكيك تلك
القنابل المؤقتة، وإنقاذ ما بقي منا، لذلك
سنبقى من أجل من بقي فقط، أظنه سيبا
كاف للعودة للحياة لأن الألم سيزول.



هكذا مرت أول ليلة لي في تلك المدينة
رغم أنني جئت من أجل الجميع للمساعدة
في تأخير تلك الأمسيات الوداعية لكنني
دفنتُ بها أول شخصٍ أتيتُ لأجله وأقمنا
رثائه في ساعاتٍ لم تكن سهلةً أبدًا، كل
ساعةٍ أذهبُ فيها لإحضار نسمة من عند
قبر والدها الذي قمنا بدفنه في حديقة
المنزل المجاور بسبب عدم قدرتنا
للخروج في وسط زحام تلك الرصاصات،
التفتُ بعد ذلك للناس الذين كانوا
يعيشون في ذلك المنزل، كان بعضهم
كاملاً، والبعض الآخر ناقص، أقصدُ هنا
جسدياً، بعضهم كان بحاجةٍ للتدخل
الجراحي، هنا بدأتُ أول محاولاتٍ في
إغلاق جروح مدينة ليالٍ من داخل



منزلها، حاولت وساعدتُ بما في قدرتي،
ثم مضتُ عدة ساعاتٍ على هذه الحياة
التي كنتُ قد سكنتُ فيها في الكثير من
تلك المنازل التي قُلتُ أصحابها في
مخيلتي، كنتُ أعلمُ أنني في قدومي
سأختارُ أحدَ الطرفين إما العقلَ أو القلبَ،
وفي معرفةِ العقلِ والقلبِ (المنطقِ
والعاطفة) خضتُ أطولَ رحلةٍ في حياتي،
فالخطُ الواصلُ بينهما كان أرقَّ من أن
أسيرَ عليه لكنني لا أملكُ خيارًا آخرَ
غيرهما، فالوقوفُ في تلكَ اللحظةِ
والمنطقةِ مؤلمٌ جدًا، قد سُميتِ الحروبُ
التي كانت فارغةً من الرحمةِ ومليئةً
بالموتِ بالحروبِ العالمية، وسُجِّلت في
كُتبِ التاريخ لكن هنالك حروبًا لم تُسجل



وما زلت تتزف داخلنا، تقتلُ مواطنين بنا
وتؤلمنا، كانت في ذلك الطريق الواصل
بين العقل والقلب، إعلان الرغبة بترك
الواقع والسير بعيداً لن ينجي بالأخص
عندما يصبح المرء أسير تلك الحرب،
وأنا الآن يجبُ فقط أن أختار من هو
سجاني، القلبُ أو العقل، وكنت متأكداً
بأن من أختاره كسجان سيجعل الآخر
أسيراً معي، في تلك الساعات كنت قد
مللتُ من إصلاح نفسي المهدمة في كل
لحظة من أجل دواء جروح الحرب،
أصبحتُ أريدُ إصلاح نفسي من أجلّي،
حاولتُ من أجل ذلك العودة إلى طبيعتي
ليالٍ حتى لو كان الوقتُ في منتصف
الليل لكن الطرق جميعها كانت مغلقة في



وجهي، لجأت حينها إلى بابٍ واحدٍ هو بابُ الله الذي لا يغلقُ أبدًا، حينها صليتُ ركعتين وبدأتُ من جديد، جعلتُ أحرفَ الألمِ تتبدلُ نحو الأملِ في ليلةٍ كان يحكمها هدوء الليلِ وسكينةُ السماء، لم تبقى هكذا كثيرًا حتى عقبها هطولُ الشتاء، أسمعُ قطراتِ المطرِ كأنها جاءت لتغسلَ كل هذه الحياة جلستُ قليلًا حينها متسائلًا:

- ماذا يحدثُ أسفلَ قطراتِ المطرِ؟!

كانت مجموعةً من المرات حين تقَلَّبتُ في أجوائي الداخلية مع ثباتِ الطقسِ الخارجي، قلتُ لنفسي:

- "اليوم يجبُ أن أبدأ، النسيانُ ربما أولُ أمرٍ يجبُ عليَّ فعله، نسيانُ ماذا؟ هل



ستصبح ذاكرتي مؤقتةً للوقتِ الحاليّ
فقط؟ ألن تعودَ للوراء؟ لم يحدث، إذا ما
الذي سأفعله اليوم؟ سأنظرُ لقطراتِ
المطر، فقط ذلك."

أعدتُ تكرارَ السؤالِ بداخلي:

- "ماذا يحدثُ تحتَ قطراتِ المطر؟ هل
من المؤلمِ على الأرضِ استقبالها؟، لو
كان مؤلمًا لما أنبتت وردًا بعد ألمها،
ربما تردُّ الأرضُ الجميلَ المؤلمَ بالورد،
فلولا ذلكَ الألم لن تزهري، أهي مؤقتة؟
من؟ الشتاء؟ لا الشتاءُ دائمًا قطراته
موجودةً في قلوبنا لكنها للأسف لا
ترتطمُ بجميعِ القلوب فتقسي تلكَ القلوب
متحولةً إلى صحراءٍ جافةٍ قاحلة، ولكن
حينَ تكونُ قلوبنا المزهرة في أشدِّ



استقبالها لتلك القطرات من المطر تزهـر
لكن الألم يكمنُ في عيش تلك القلوب
المزهرة في وسط صحراوي من القلوب
الجافة، حينها لن أعلم ماذا سيحدثُ
تحت قطرات المطر يا صديقي الداخلي
سوى صوتها.



الفصل الثاني

٢١ آذار ٢٠٠٣

نسمات الأدب

للنشر الإلكتروني



أتى الصباح بعد ساعتين من نومي،
صباحي الذي لم يختلف شيئاً عن الليل،
نهضتُ، نسيْتُ أنني لستُ في منزلي،
كانت رائحة ليالٍ لا تزال تملئُ ذلك
المنزل، شعرتُ حينها أنني في قريتي
وفي منتصفِ بيتي، خرجتُ للخارج قليلاً
وجدتُ حينها اختلافاً كبيراً، حينها
أعطيتُ نفسي مهلةً دقيقتين لاستيعابِ ما
يحدث كأنني استيقظتُ في عالمٍ آخر أو
أحدًا ضغطَ زراً حولَ عالمي إلى حياةٍ
البارحة بتفاصيلها، خرجتُ حينها نسمة
ورائي خائفةً وطلبتُ مني الدخول للداخل
عدنا بعدها وجلسنا في غرفةِ الجلوس،
مازلتُ أرى الليل، لم ينتهي الليلُ من
داخلي، كان داخلي ليلةً عاصفةً مختلفةً،



لم تأتي فقط بالهواء والأمطار بل كانت
تعصف بالرصاص والقذائف، سمعنا
حينها طرق باب المنزل الذي كنت أنا
أول وآخر من طرقه في تلك الآونة
الأخيرة، لم تكن نسمة تريدني أن أفتحه
بسبب خوفها من القادم لكنني فتحت ذلك
الباب بسبب خوفي على القادم لأنني
كنت أعلم أو أنه رأيي فقط بأن من يطرق
باب المنزل لن يؤدي أهله، وبعد أن
فتحته دخل رجل طويل القامة بسرعة
لداخل، كان يلهث محاولاً أن يجمع
أنفاسه، أتى مع رصاصة في كتفه،
حاولت أن أكلمه لكنه كان داخل صدمة،
لم يجب على صوتي إلا بالصمت والنظر
إلى داخل عيني ثم إلى الباب، لم يذهب



عينيه عن عتبة الباب، دخلت وأحضرتُ
حقيبتِي، وكوبًا من الماء، ثم عالجتُ
جرحه وأشربته الماء ثم نام، كنتُ أنظرُ
إليه لفترةٍ طويلة قائلاً لنفسِي:

- أنا أعرفهُ من مكانٍ ما لكنني لا أتذكر.

انتظرتُهُ حتى استيقظ، كان استيقاظهُ
شبيهًا بشخصٍ بقي في الماء حتى
انتهت أنفاسُهُ وخرج بعدها، حينها بدأ
يصرخُ قائلاً:

- أين أنا؟

فقلتُ له: اهدأ أنتَ في أمان، اهدأ فقط.

بعدَ أن زالتْ عنه الصدمةُ قليلًا، دارَ
حديثٌ بيني وبينهُ، بدأتُ فيه ببعضِ
الأسئلةِ مني له:



- من أنت؟ من أين؟ ما الذي حدث معك؟

أجابني بصوتٍ مرتجف:

- فارس.

وكان من حيي الذي ولدتُ أنا فيه (أحدُ
أحياءِ مدينة بغداد)، وقد خرجَ من ذلكَ
الحي الذي قد أمطرت عليه القذائفُ
والصواريخُ التي هدمت، قتلت، شرّدتْ
ويتمّت، وأخبرني كيفَ فقدَ عائلتهُ إثرَ
ذلك، وقفتُ وعانقتهُ وقلتُ له:

- أنا أحمد العربيّ صديقَ طفولتك يا فارس.

فقفزَ وعانقني باكيًا لكن ما قاله صنعَ
زلزالًا مدمرًا داخلي لأن ذلكَ الحي يملكُ
الكثيرَ من الأيام والذكريات الجميلة وفيه
الكثيرُ من أقاربي وأشخاصٍ لهم من



القلب مساحة لا بأس بها، حتى أخي
وعائلته في ذلك الحي ولا أستطيعُ
التواصل معهم، هنا بدأ القلق يأكلُ وقتي
ثم قررتُ أن أحاول الذهاب إلى هناك
لكن فارس منعي فقال لي:

- إن خرجت من باب المنزل ستصبحُ رمادًا.

ذهبتُ إلى الداخل جلستُ لوحدي أفكرُ
بصمتٍ وأعانقُ منديلَ حبيبتِي ليساعدني
على الصمودِ قليلًا، حينها أخذتني
أفكاري إلى ليالٍ متسائلًا:

- "هل هي بخير؟ هل سأراها؟"

وضعتُ صورتها أمامي وقلتُ وأنا أبكي:

- لم يربطنا أبدًا الوجودُ في تلك الأماكنِ
القريبة من بعضها مثل قرب القلبِ



وغلافه بل في أبعد الأماكن كنا قريبين،
والزمن البائس هذا اختار لنا أبعد
الأماكن، مددت يدي لك من بعيد يا
حبيبتي، من بين أصابعي كنت أرى في
مخيلتي القمر كأنني أعيش في تلك
اللحظة وجودك بقربي، كأنك أنت من
أراها، لم أكن أعلم أن تاريخ تلك اللحظة
سيتوقف بها، بمرور بعض الغيوم التي
جعلت داخل أصابعي معتمًا، بحثت عن
عدة وسائل كي أعيدك ثم بدأت يدي
تتلاشى وتختفي مع غيابك، باحثة عن
يدك في سماء فارغة، لم أكن أملك
الكثير من الخيارات لكنني علمت أنني
لكي أجدك يجب أن أغيب مثلك، فسافرت
بإغلاق عيني، اختفيت لوهلة من الزمن،



لم أجِدكِ، قررتُ العودة، لم أستطع،
فاقترحَ قلبي عليَّ أن أسألَ عقلي عن
الطريقِ الصحيح، فعدتُ عندَ استيقاظِ
عقلي، وجدتُ نفسي في تلكَ اللحظة من
جديد، في غرفةٍ مظلمةٍ، تخيلتُ أن القمر
قد عاد، فعدتُ لأرفعَ يدي فلم أجدها،
علمتُ حينها أنها ذهبت لك، جلستُ
أنتظرُ ذهابَ الباقي مني لك لكي أجمعَ
نفسي من جديد ثم أيقظتني نسمة من
يقظتي الكاذبة تلك وإذا بي كنت قد نمتُ
وأنا جالسٌ أعانقُ صورتك التي ساندتني
قليلاً.

حينها نهضتُ وتوضأتُ بعدها ووقفتُ
أمامَ خالقي، بدأتُ في صلاتي حتى
وصلتُ إلى السجود، حينها لم تصبر



عيني، فاضت كأنها ينابيع مجمدة ذابت
مائها في لحظة واحدة، دعوتُ ربي،
رجوته بكم من الدعوات، لأخي وعائلته،
ليال وابني، وطني وشعبه، دعوته وقلتُ
يا ربي إن كنتُ وسيلةً ترسلُ بها إنقاذك
لهؤلاء الناس هنا، فاجعل لي وسيلةً في
الأرض تنقذُ بها كل من أحب ولا أستطيعُ
إنقاذه، وأنا يا الله أحب كل شيءٍ هنا،
هذا كل ما تمكنتُ من فعله حينها،
الدعاء لهم فقط، قالت حينها لي نسمة
بعد رؤيتها دموعي:

- لم أكن أعرفُ أن الرجال أيضًا تبكي
ظننته أمرًا نتفردُ به نحن النساء فقط،
هل اشتقت لليال أم تلك الدموع لأخيك
وعائلته؟



- دموعنا نحن تأتي مباشرةً من الجوفِ
يا نسمة حين لا يتبقى متسعٌ في الداخلِ
لها، إني قلقٌ على ليالٍ، ابني، أخي
وعائلته، التفكيرُ في أني عاجزٌ عن
معرفة شيءٍ عنهم يقتلني.

- سيكون الجميعُ بخيرٍ وسنجتمعُ معهم
عما قريبٍ بإذن الله تعالى، لا تحزن
وتأمل بالله.

- إن شاء الله يا نسمة إن شاء الله،
مضى الآن ما يقاربُ اليومين على
غربي يا نسمة ولا أعلم متى سأعودُ
إلى ليالٍ لأنني شعرتُ أن هذه المدة
الزمنية أخذت الكثيرَ من عمري في
مضيها.



نسمة: لا تُفكر بشيءٍ الآن، نم قليلاً
وارتح من أجل غد، فقد سمعتُ بأنهم
سيأخذوننا إلى ملجأ يجتمعُ به أهلُ
الحي، هذا ما أخبرني به فارس، ربما
علمَ عن طريقِ اللاسلكي الذي معه.

- ماذا؟! لاسلكي؟! ربما أستطيعُ الاتصالَ من
خلاله بليال أو بأخي، اتبعيني يا نسمة.

ذهبتُ إلى فارس راكضاً حتى أُرعبته، وقلتُ له:

- هل يمكنني من خلال هذا اللاسلكي
الاتصال إلى مسافةٍ بعيدة؟

- أحمد! ظننتُ أن نهايةَ العالمِ قد أتت،
أنا آسف يا صديقي لكن هذا اللاسلكي لا
يمكنه فعلُ ذلك لكن إن أردتُ أنا أملكُ
هاتفاً مازال به القليلُ من الطاقة، أنا



كنتُ أشحنهُ عن طريقِ الطاقةِ الشمسية،
هكذا كنتُ أفعلُ حينَ خدمتي لكنني فقدتُ
حقيبتِي أثناءَ مجيئي إلى هنا وكان جهازُ
الشحنِ بها لذلك بقيَ هاتفي من دونِ
شحنٍ لكن فيه القليل ربما تتمكنُ من
الاتصال من خلاله لكن يجبُ أن نصعدَ
إلى سطحِ المبنى لعلهُ يلتقطُ التغطية
فهنا في المنزل ليس هنالك إشارة.

- حسناً يا فارس أحضر هاتفك وهيا بنا
إلى الأعلى بسرعة، هيا.

صعدنا بعدها إلى سطحِ المبنى بعدَ قتالٍ
مع نسمةٍ لمنعنا عن فعلِ ذلك، وبعدَ
وصولنا أمسكْتُ هاتفَ فارس وبدأتُ
بالاتصالِ على منزلِ أخي ونجحتُ بالتكلمِ
معه والاطمئنانِ عليه ثم اتصلتُ بعدها



على هاتفٍ منزلنا، حاولتُ الكثير من
المرات لكن الخط لم يتصل، بقيتُ أحاولُ
وفارس ينظرُ لي ويخبرني أن أهدأ قليلاً،
يئستُ حينها وأعطيتُ الهاتفَ لفارس
وحملتُ خيبتني ونهضتُ للنزولِ للأسفل
لكن فارس حينها حاول الاتصال مرةً
أخيرة، فسمعتُ صوتَ الهاتفِ قد نجحَ
في الاتصال، كم جعلت قلبي ينفطرُ أيها
الهاتف، قلتُ لفارس:

- أعطني الهاتف بسرعة.

بعدها سمعتُ صوتَ حبيبتي ليالٍ لم
أستطع حينها امسأك عينيّ أو منعَ
ارتجافِ صوتي وفمي، كانت ليالٍ تعيدُ
قولَ مرحباً وأنا لا أستطيعُ الكلام حتى



نطقْتُ اسمها بصوتي المرتجف والباكي،
قلتُ:

- ليالٍ، حبيبتي، هذا أنا أحم

لم تدعني ليالٍ أكملُ كلامي حتى بدأتُ
بالبكاءِ وقول:

- طيبي عرفتكَ يا طيبي، أين أنت،
اشتقتُ لك كثيرًا.

- اهْدئي يا حبيبتي أنا أيضًا اشتقتُ لكِ
ولا يسعني فعلُ شيءٍ سوى ذلك، كيف
حالكِ أنتِ وابننا؟ هل أنتم بخير؟
اخبريني يا قلبي قبلَ دموعك.

- لا تخف يا طيبي هذه فقط دموعُ
الفرحةِ بسماعِ صوتك، نحنُ بخير ما
ينقصنا فقط هو وجودك هنا، أخبرني



أنت كيف حالك؟ هل الجميع بخير؟
والدي، نسمة، وأنت.

- نحن جميعًا بخير يا حبيبتي، أردتُ أن
أخبرك فقط أنني

حينها انتهت المكالمة بانتهاء شحن
هاتف فارس لكنني بقيتُ حينها أصرخُ:
- ليال، ليال، ليال.

بدأ فارس يحاول تهدئتي بقوله:

- انتهت، أهدأ يا صديقي اهدأ.

- لم أنتهي يا فارس لم أنتهي من كلامي
دقيقةً واحدةً فقط لا تكفي بعد كل هذه
الساعات السنوية من البعد، لماذا الحياة
ظالمة لهذه الدرجة؟ لماذا يا صديقي؟

عانقتني حينها فارس وأخبرني بـ:



- المهم هو أنهم بخير يا صديقي، هذا المهم، الآن لا يجب عليك سوى أن تنظر إلى ما جئت إليه، تدعو لهم وتنتظر المرة القادمة فقط.

لم تسمح الحياة لي بأكثر من دقيقة واحدة تقريبًا، مقابل العودة من جديد إلى هنا بين أحضان الحديقة الحمراء، لم تُصدقني نسمة عندما قلت لها ذلك، اعتقدت أنني أكذب عليها وأن أختها قد حصل لها مكروه لكن في النهاية تركت الأمر هذا على عاتق فارس وذهبت إلى النوم.

٢٢ آذار ٢٠٠٣

استيقظت مبكرًا على صوت الرصاص من جديد، خرجت من غرفتي ذاهبًا



باتجاه الحمام، سمعتُ صوتَ بكاءٍ من
غرفةِ فارس، طرقتُ حينها البابَ عليه
وطلبتُ منه الدخول، فقال لي أنه يغيرُ
ملابسه، كان سببًا كافيًا يجعلني أمتنعُ
عن الدخول لو كان حقيقياً لذلك فتحتُ
بابَ الغرفة ودخلت، قلتُ له:

- لم أرى في حياتي شخصًا يبكي حين
يغيرُ ملابسه، هيا اجلس هنا وأخبر
أخاك ما الأمر؟

- أنظر هذه صورةٌ عائلتي وزوجتي، لقد
خدمتُ مدةً سنةٍ متواصلة على أمل أن
أخذَ إجازةً طويلة وأذهبَ لرؤيتهم ورؤية
ابني الذي ولدَ منذُ خمسة أشهر، هذه
صورتهُ أيضًا، انظر لقد وصلتني قبل أن
تبدأ الحرب، الآن موعد مرحلة الإجازة



والذهاب إليهم لكن عندما وصلتُ إلى
هذه المرحلة وصلتُ الحربُ معي
ومنعتني من الذهابِ إلى هناك، أعلم
أنهم جميعاً بخير كلمتهم قبل أن تتكلم
مع أخاك ومع ليالٍ، لكن

- اشتقتَ لهم، أعلم هذا يا صديقي.

- نعم هذا هو الأمر، وهو يؤلمني من
الداخل، تعرضتُ للكثير من الأشياء التي
تتسببُ في منع النفس لكن لا شيء
يخلق مثل الشوق.

- صديقي، لا يمكنني اطفاء ألمك أبداً
لكنني أعلم أن الرسم داخل لوحة سوداء
لن يظهر مهما كنت مبدعاً في رسمك،
كذلك هو الألم لكنه هنا هو اللوحة
السوداء لذلك لا أريدك أن ترسم شيئاً



داخلها، أريدك فقط أن تستخدم المحاة
وتجعل ذلك السواد يختفي، لا بأس
بالشوق يا صديقي إنه أمر واجب
الحصول بل عدمه هو المشكلة لكن
أريدك فقط أن لا تجعل من ذلك الشوق
داخلك لوحة سوداء، فقط هذا ما أريد،
حسنًا يا صديقي؟

- حسنًا، أحمد، شكرًا لك يا صديقي، لم
تطفئه هذا صحيح لكنك أخذته قليلًا، في
الواقع نسمة خرجت لا أعلم إلى أين،
حاولت منعها لكنك تعرف نسمة.

- هل خرجت؟ بالتأكيد ذهبت لوالدها،
هيا قم الآن واغسل وجهك وانتظرنني في
غرفة المعيشة.



ذهبتُ حينها ووجدتُ نسمةً عند والدها
تبكي هناك وتحتضنُ قبره، اقتربتُ منها:

- إنه سعيدٌ هناك يا نسمة في منزلة
الشهداء عند الله، أتمنى أن تكون تلك
الدموع فرحاً له لا حزن حتى تجعله
فرحاً مطمئناً عليك.

- إنه مؤلم يا صهري، الفراق يؤلم هنا
في منتصفِ القلب، تلك الدموع له لا
عليه لا تخف، لكنني اشتقتُ له كثيراً.

- نعم، أنه مؤلم كثيراً، أعرفُ شعوره
عندما فقدتُ والدي في حادثٍ قديم، كان
مؤلماً جداً حينها كنتُ لا أزال صغيراً
لكنني اكتشفتُ لاحقاً أننا نحن دائماً
صغاراً أمام فراق والدينا، نكبرُ فجأةً بعد
حدوث ذلك الأمر كأننا كنا في نوبةٍ من



الصدمة القلبية ثم عدنا للحياة لكن مع
فقدان جزءاً منا، جزءاً تلو جزء حتى
تنتهي تلك السلسلة في انتهائنا معها، لن
يذهب ذلك الشوق يا نسمة سيبقى في
داخلك دائماً، هذا الأمر برأيي هو ما
يجعل لأحببتنا أهمية، عند الشعور بألمه
نتذكرهم بصورة مجسمة أماننا، تجعلنا
نلتقي خلف كواليس هذه الحياة.

- هل علمتك الحياة هذا يا صهري،
مازلت تقول ما يجول في قلبك بلحظتها،
أشعر فقط أنني يجب أن أعانقك، شكراً
لأنك جعلتني أشعر أن أخي بجانبني
يواسيني لكن لا يمكنني سوى أن أقول
لك شكراً يا أخي.



- أحببت كلمة أخي أكثر من صهري،
نادني دائماً بذلك، ولا داعي أن تشكريني
هذا واجبي ثم هل تكون بالدور أنت
وفارس، ماذا أفعل إن نسيث كيف
أواسي.

- ماذا؟ هل فارس يبكي؟ لماذا؟ ثم أنك
مبدع في المواساة لا أظن أنك ستنسى
كيف تواسي.

- نعم إنه يبكي قليلاً، لا بأس في ذلك أحياناً،
لا تشغلي بالك لقد مررت عليه أولاً.

- حسناً، كان يجب أن تكون طبيباً نفسياً
أيضاً، أظن هذا.

- طبيباً نفسياً! لا اعتقد أن باستطاعتي
تحمل هذا، أو هل تعلمين؟ ليس هنالك



فرقًا كبيرًا بين الاثنين، الطبيب النفسي
يعالجُ جروحًا لا يمكن رؤيتها يعالجها
عن طريق السمع غالبًا فأغلب تلك
الجروح روحية، أما الطبيب الجراح
فوظيفته تقتصرُ على جروح الجسد يا
نسمة.

- لم أفهم! أين الشبه بينهما؟!

- كلاهما يقيان المرء على قيد الحياة يا
نسمة، كلاهما يعلان ذلك، هيا بنا إلى
المنزل فارس ينتظرنا هناك، الألم
سيزول، هيا بنا.

عند دخولنا في تلك الأثناء إلى المنزل
وجدنا في منزلنا بعض الجنود الذين
كانوا يفرغون المنازل من السكان بسبب
الحرب، أخذونا إلى ملجأ كان يبعدُ قرابة



نصف ساعة سيرا على الأقدام، كنتُ
أفكرُ بأمرٍ واحدٍ فقط أثناء سيري، إن
وصلتُ إلى هناك، هل سأستطيعُ أن أكلَمَ
ليالٍ مرةً أخرى؟ أن أطمئنَ عليها وعلى
ابني من جديد، سألني فارس حينها فيما
أفكر فأخبرتهُ بآلني:

- لم أعتقد أنني سأفتقدُ ليالٍ وابني أو
أغيبَ عنهم إلى هذا الحدِ من الوقت في
يومٍ من الأيام بعد أن اعتدتُ على
رؤيتهم في كلِّ يوم، أو أن المسافة
المقطوعة التي بيننا أكبرُ من أن تنتهي،
لقد سرْتُ في العديدِ من الطرقِ في
حياتي من أجلهما، حتى الكثير من
الاتجاهاتِ الحديثة التي اكتشفناها، لم
تعد الطرقِ مثلما كانت يا صديقي،



أحياناً كنتُ أسيرُ عكسَ الاتجاهِ وأنا لا
أعلم، كانت بعضُ الأماكنِ تشبهُ قليلاً ما
كانت عليه، كان هذا الأمرُ يجعلني أسيرُ
في اتجاهها كأنها المسالكُ الصحيح مع
معرفتي أن نهايةَ كلِ طريقٍ هنا كانت
مسدودة، فكرتُ أن السيرَ مرةً أخرى
هناك، ربما هذا العملُ خاطئٌ لأن هذه
الطريقة خاطئة ولا سيما في ذلك لكن
الخطأ الذي كنتُ أمرُ فيه أنني كنتُ أسيرُ
عكسَ السيرِ في ذاتِ الطريقِ مرةً أخرى
تلو أخرى، ربما الرجوعُ ضروريٌّ في
وقتها لكنني عدتُ إلى ذاتِ البداية مجدداً
ها أنا ذاهبٌ إلى مكانٍ آخر بعيداً عن
ليالٍ، عندما كانت هنا لم أكن أضيعُ
هكذا، كانت عيناها ترشدني، أقعُ في



طريقها مرةً وأقفُ مرةً لكنني لم أكن
أضيق، الآن سؤالٌ واحدٌ يراودني في
بعدها وفي ضلالي هذا، من السبب في
كل هذا؟ هل الحياةُ ظالمةٌ إلى هذه
الدرجة؟ كأني لم أعتد على الحياة بعد
يا فارس أليس كذلك؟ لأنني قد اعتدتُ
على العيش بحبيبتِي فقط، وليس بالحياةِ
كالآن.



الفصل الثالث

رسائل الحرب

نسمات الأدب

للنشر الإلكتروني



أيقظني أحد الجنود من غيبوتي الواقعية
ليخبرني بأننا وصلنا ويجب أن أدخل
لداخل بسرعة لعلني ألحق أحدهم من
جديد، دخلت أنا، نسمة وفارس، قلت
لفارس أن يعتني بنسمة بينما أحاول أنا
مساعدة الجرحى هناك، في مكان مليء
بالناس المصابة وصرخات الألم، الدم،
الموت، الخوف والبكاء بدموع بعضها
ناجمة عن ألم جسدي وبعضها روحي،
وجدت هناك فتاة متوسطة القامة تتحرك
بسرعة وتصرخ هنا وهناك ثم أتت إلي
وقالت لي:

- أنا الممرضة علياء التي لي الشرف أن
أصبح مساعدة الدكتور أحمد العربي.



فقلتُ لها: أنني تشرفتُ بكِ أيضًا لكن
برأيي ليس هنالك وقتٌ للترحيب يا
علياء، بما أنكِ تعرفين من أنا هيا بنا
للعمل يوجد الكثيرُ من المحتاجين لنا
هنا.

كان لي مكانٌ في كلٍ سريرٍ هنا، في كل
خطوةٍ كان صوتي يسبقني لعلياء، خيطةٌ
يتلو خيطة، كان من السهل أن تثبت
إمكانية الوصول السريع إلى كل شخص
قبل الموت بإغلاق جروح خارجية
النزف لكن لم يمكن سهلاً عندما كانت
تلك الجروح غائرة تنزف دمهًا باتجاه
عكسي داخل شريانٍ واحد يصل فقط إلى
القلب، بدايتي في هذا المكان لم تكن
مختلفةً أبدًا عن البداية في طريق الطب



كانها تجربة تعليمية كثيرة الحالات لكنها لم تأتي في جامعة حكومية أو خاصة بل أتت في جامعة الحرب التي حكمت على جميع طلابها وطالباتها بأن يكونوا على لائحة التجربة التي لا تثبت صحتها إلا إن كانت خاطئة لأن الأمر لم يكن هكذا فحسب بل كان الموت مُدرّساً أيضاً في تلك الجامعة، الأستاذ الذي لن يصل إليه أحد إلا عند رسوبه في امتحان النجاة الذي كانت نسبته محدودة جداً، ذلك الأمر الواقعي جعلني أبدأ في محاولة رفع هذه النسبة المحدودة إلى أكبر رقم يمكنني الوصول إليه، حينها فقط سأكون في استعداد كبير لمواجهة نظام تلك الجامعة، في حدود الساعة الثالثة بعد



الظهر، بعد عملٍ طويلٍ في مساومة
الموت، وإنقاذ أكبر عدد ممكن من
الناس، فارس في ذلك الوقت كان يساعد
في إحضار المصابين، بينما نسمة
تساعد علياء، ومن يساعدني أنا كان
شخصًا واحدًا فقط هو ليال، الغائبة
جسديًا، الحاضرة روحيًا، ذهنيًا، عقليًا،
وقلبيًا، أتت في ذلك الوقت نسمة،
أحضرت لي رغيف خبزٍ مدموجٍ ببعض
الزيت والملح وقالت لي أنني لم أكل
شيء منذ الصباح ويجب علي تناولها
للحفاظ على قوتي.

قلت: حسنًا.

ولكن قبل تناولها وجدتُ صبيًا ينظرُ لي
وكأنه أرسل بعينه رسالةً تخبرني أنه



جائع، أعطيتُهُ إياها حينها ليتناولها،
فأخذها ثم قسمها لنصفين وأعطاني
نصفها وتناولَ نصفها، حينها ضحك في
وجهي ربما اعتقدت نسمة أن ما
أحضرت لي هو الذي سيحافظ على
قوتي لكن الحقيقة التي فعلت ذلك هي
تلك الضحكة فقط، نهضتُ، مسحتُ بيدي
على رأسِ ذلك الصبي وعدتُ لعملي،
وفي حدودِ الساعةِ الرابعة أتت مجموعةٌ
من الجنود يحملون شخصًا على أكتافهم
ثم أتى شخص مسرع قائلًا:

- من الطبيب هنا؟

أخبرته أن يهدأ قليلًا ويخبرني ما الذي
يريدُهُ، حينها طلب أن أرى قائده بأسرع
وقت بعد أن أُصيبَ بالعديد من الشظايا



في أنحاءٍ مختلفةٍ من جسدهِ إثرَ انفجارٍ
حصلَ بالقربِ من المكان الذي كان يقفُ
فيه لكن في ذاتِ الوقتِ أتنّني أيضًا
علياء تطلبُ مني إسعافَ طفلٍ إصابتهُ
بليغةٌ قليلًا تطلبُ تدخلًا جراحيًا بشكلٍ
سريعٍ، وللأسف لم يكن حينها في ذلك
الوقتِ وذلك المكان طبيبٌ جراحٍ غيري،
حينها أخرجَ الجندي سلاحه وهددني
طالبًا مني الإسراع في رؤيةِ قائدهِ،
ذهبتُ معه حينها وقلتُ لعلياء أن تبقى
قليلاً مع الطفل لكن حين عاينتُ قائدَ ذلك
الجندي وجدتُ أنه قد فقدَ الكثيرَ من الدم
وهو بحاجةٌ كبيرة للدم، وكانت زمרתهُ
(O سلبي) التي علمناها من هويتهِ
العسكرية التي في جيبه، سألتُ من معه



إن كان أحد الجنود يحملُ تلك الزمرة
فقالَ لي ذات الرجل الذي هددني أن
زمرتهُ مثلها، في ذلك الوقت جاءت
علياء تطلبني من أجل الطفل بسرعة،
فطلبتُ منها أن تأخذ دم من الجندي
وتعطيه لقائدهُ بسرعة بينما أذهبُ لرؤية
ذلك الطفل، فعلتُ علياء ما طلبتهُ منها
في حين إنقاذي لذلك الطفل الذي أسعفتهُ
والحمدُ لله على ذلك، لكن لم تنتهي هنا
حتى سمعتُ صراخًا من الناحية الأخرى،
حينها وجدتُ فارس يمسكُ الجندي ذاك
ويهددهُ بالقتل، ركضتُ إليه وهدأتهُ قليلًا
ثم وجدتُ المريض يرجفُ بقوة، توقفَ
قلبه، لم يكن هناك كهرباء لاستخدام
جهاز الصعق، حقنته حينها أبره



أدرينالين في قلبه مباشرةً لكنه مات
خلال بضعة من الثواني، كانت حالته
نادرة جدًا وفي ذات الوقت من الحالات
التي تحكمها الثواني في شفائها أو
عدمه لكن ما ظهر لاحقًا هو علامات
تحسس قوي تجاه الدم الجديد الذي
توضح بعد التأكد من زمرته أنها ذات
الزمرة لكنها تختلف بالإشارة، هذا الأمر
الذي سرع في إنهاء حياة قائد تلك
المجموعة التي قامت حينها في قتل
الجندي الذي تبرع بالدم ثم أخذ جثمان
قائدهم والرحيل، طلبت من فارس أن
يتساعده هو وأحد الأشخاص هنا في دفن
ذلك الجندي ثم ناديتُ علياء حين قدومها
كان رأسها متجهًا للأسفل ثم قالت لي:



- أنا مذنب، اعتذر عن خطأي هذا، ربما لو تأكدت لما مات هذا الجندي وربما استطعنا حينها إنقاذ قائده.

أخبرتها حينها بعدم التفكير بهذا الأمر وأن موت الجندي هذا نبع عن ربما جهل من هذا الجندي وتسرع منا لکن هذا هو القدر يأتي بإذن الله في كل شيء، والحمد لله على كل شيء

- الآن هيا ارفعي رأسك، امسحي دمعك، وركزي فقط، هيا بنا.

ذهب النهار خلال ذلك الوقت الذي كانت رهينته بعض من الراحلين، وبعض من العائدين، وهنا أقصد إلى الموت أو من الموت، غابت الشمس وأتى الليل، وهنا بدأت تلك الليالي التي أسرق منها وهلة



أو عدة لحظات، أكتبُ بها رسالةً خاصةً
إلى ليالٍ لكي لا تموتَ لحظاتي القادمة
إن متُّ أنا، انتهى اليومُ الأولُ لي هناك
بعد تعبٍ وموتٍ دامَ مدةً أربعٍ وعشرين
سنةً، فالتوقيتُ كان هنالك بالسنين
وليس بالساعات، كانت أولُ رسالةٍ
كتبتها لليال عبارةً عن التالي:

- "ليالٍ، يا شمعتي، كيفَ حالكِ يا ليلتي؟
أتمنى أن تكوني بخير يا وردتي التي
تسقينني هي الحب قبل أن أسقيها أنا
ذلك، ذبتُ أنا في غيابي عنكِ يا حبيبتي،
اشتقتُ لتلك الأدلة التي أبحثُ عنها في
عينيكِ لكي أجد سببًا يجعلني أحبك من
جديد، الليالي التي كنا نضحكُ بها، الأيامُ
التي كنتُ أعودُ للحياة فيها كلما أرنُ



جرس منزلي لتأتين أنتِ وتفتحين الباب
لي ثم تسأليني بوجهٍ غاضبٍ عن
مفاتيحي، فأقولُ لكِ أني لا أملكُ وقتًا
إضافيًا لكي أبحثَ عنكِ، فهكذا أراكِ
بسرعةٍ أكبر ثم أرى تلكَ الابتسامة
الخبولة المختلطة مع وجهٍ غاضبٍ،
كانت تُنقِذني منكِ تلكَ الابتسامة التي
تأتي خارجًا عن إرادتكِ ثم تبكين بعدها
لأنني تأخرتُ قليلًا، فهنا أعلمُ أنه أتى
الوجه الذي يحتاجُ أن أنقذه أنا، فأعانقكِ
ثم نشتمُ رائحةَ الطعام التي تأتي بعد
الحريق لتركضي بسرعةٍ إليه وتتركيني،
نعم حدث ذلك في بعضِ المرات حينها
كنتُ أنا من أتولى أمر تنظيف طنجرة
الطعام المحترق، حبيبتني أنا أيضًا



أحترق أنقذيني بإطفاء نار الحرب هذه،
اليوم بعد مرور ثلاثة أيام تقريبًا من
فراقنا، أصبحتُ أعملُ في مكانٍ مليءٍ
بالموتِ والدموع، اليوم ماتت امرأتين
وخمسةً من شبابِ الحي ورجلٌ عجوز،
وقائدٌ لأحدِ المجموعات العسكرية (مع
ذكرِ القصة التي توفى بها هذا القائد)،
حبيبتي إني أضعفُ من أن أروي لكِ
كيف كانت طريقة الموت التي تحدثُ هنا
بجميعِ أشكالها لكنني كنتُ مضطرًا أن
أكونَ أحدَ الحاضرين في مجلسِ الموتِ
والظلمِ ذاك، حاولتُ أن أجعلَ الموتَ
محدودًا فأنقذتُ بفضلِ الله ومساعدةِ
المرضةِ علياء التي تعرفتُ عليها هنا
العديدَ من الأشخاص الذين منهم من



تعافى بشكلٍ كامل، ومنهم من بقيَ في
حُكمِ الوقتِ والقدر، حبيبتِي أنا بخير،
أحاولُ ذلك، أتمنى أن تكوني بخير، أراكِ
قريبًا، أحبك."

ثم ذهبتُ للنومِ قليلًا، وفي صباحِ اليومِ
التالي كان يعمُ الهدوء، إنه أولُ صباحٍ
لي يأتيني من غير ضجيجٍ يؤلمُ أذنيَّ،
عينيَّ، وقلبي، ثم ليصبحَ في ذاكرتي
التي دَفَنْتُ فيها الكثير لكن رغمَ ذلك لم
يكن ذلك الهدوء يُريحُنِي لذلك وقفتُ
وذهبتُ إلى الداخلِ فوجدتُ الملجأَ فارغَ
ليسَ بهِ أحد، توترتُ وأصبحَ جبیني
ينزفُ عرقًا، ركضتُ، حاولتُ البحثَ عن
أحد، لم أجد غيرَ نفسي، أركضُ في خطٍ
طويلٍ كان يصعبُ عليَّ السير فيه



خطوتين، أصبحت أخطبُ في منتصفِ
ذلك الملجأ، صرختُ ثم سقطتُ على
الأرضِ ووضعتُ رأسي بين ذراعيّ ثم
لامسَ رأسي الراحةَ من جديد في يدِ
ناعمة كأنّ تلك اليَد أعادت نبضَ عقلي
مرةً أخرى كقلبٍ أعادت الكهرباءُ
تخطيطه بعد استقامته، رفعتُ رأسي
مسرّعاً، إنها ليالٍ حبيبتِي، لم تصدقْ
عينايّ ماذا أرى عرفتُ أنني داخلَ حلمٍ
فلم أقرصَ نفسي لكي لا أقتلها، فعانقتها
وكأنّي سأخرجُ من داخلِ التابوت لتتفاجأ
الحياةُ أنني حيٌّ بعد أن دفنتني داخلها،
قالت لي حبيبتِي في تلك اللحظة:

- لا بأس يا طيبي أنا هنا أراك وأشعرُ
بك، أنت قويٌّ جداً، لا تسقط من أجلي،



قف بوجه تلك الحرب لنحيا في سلام،
قف بقوة تجعلك بخير لأكون أنا بخير،
أنا هنا دائماً في منتصف قلبك، في جميع
الأوقات سأقول لك أحبك يا طيبي.

ثم صمتت، لم يعجبني ذلك الصمت كثيراً
إنني أعرف هذا الصمت جيداً، نظرتُ
لها، كانت قد أغضت عيناها وامتلأت
يديّ بدمها، صرختُ وقلتُ بصوت عالٍ:
- ليالٍ.

تذكرتُ أنني في الحلم فقرصتُ نفسي
بقوة كي أستيقظ، فذلك الأمر حتى وإن
كان حلمًا فهو مؤلم، استيقظتُ بشهقتي
المعتادة لكنها كانت أشدَّ اختناقاً في هذه
المرة ثم بكيتُ قلقاً لأنني شعرتُ بأنَّ
حبيبتي قد أصابها شيء



جاءت حينها علياء مسرعةً لتقولَ لي:

- تعالَ بسرعة لقد أتت بعضُ السياراتِ
المليئةِ بالجرحى.

فقلتُ لها: حسنًا أنا قادم.

مسحتُ دموعي ووقفتُ مجددًا من أجلِ
ليالٍ وما قالتُهُ لي في حلمي، ومن أجلِ
إمضاءِ يومٍ آخرٍ في حقلِ الموت.

٢٣ آذار ٢٠٠٣

يومٌ جديدٌ في ذاتِ المكانِ لكنه كان يومًا
مكتظًا بالعمل، مليءٌ بالجرحى بعضهم
جرحى الحرب وبعضهم جرحى القلب، لم
يكن الفرق بالحرب فهي كانت سببًا
للجرحين لكنه كان بفقدانٍ من قبلٍ من،
الشخصُ قبل ابنه، اخته، ابنته، زوجته،



والده أو والدته، وأهونها الما هو فقدان
نفسه قبل أي أحد من هؤلاء، ها هي
حالي أركض من سرير مريض إلى
آخر، ترمي الحياة علي عاتق استمرارها
من جديد لتجعل مني وسيلة من الله
يشفي من خلالها من يريد، لم يستمر
الوقت هكذا دون مرور حالة أخرى من
حوادث كل يوم حيث في ذلك الوقت
دخلت امرأة تلهت من كثرة الركض،
تنادي بأعلى صوتها:

- ماء، ماء، ماء،

تسقط أرضاً، حملناها بسرعة، فحصتها،
كانت قد تعرضت لجفاف قوي، طلبت لها
وضع السيريوم بشكل سريع لتعويض ما
فقدته من سوائل، بعد عدة ساعات



استيقظت وطلبت الطبيب الأساسي هنا،
فنادت لي علياء، حين وصلت لها قالت:

- ابني أريدك أن تتقذ ابني الحسن ذو
الـ ١٥ عام.

حين قالت ذلك، جلست بعيداً عنها أبكي
بصدرٍ مختنق، ابتلع دموعي كي لا
تسقط أرضاً، سألتني علياء عن سبب
ذلك، فقلت لها:

- أنني اشتقت لابني الحسن، ولا أعلم
إن كنت سأراه يوماً ما.

أجابتي بأنني سأراه وطلبت مني التكلم
مع الامراة لمعرفة أين ابنها، ذهبت
وعندما رأتي تلك المريضة قالت لي:

- لماذا تبكي؟ هل حدث لابني شيء؟



قلتُ لها: لا لم يحدث، أنا لي قصةٌ أخرى
أبكتني لا تشغلي بالكِ والآن أخبريني
أين ابنك؟

أخبرتني عن مكانه الذي كان يبعدُ ثلاثة
شوارع عن موقعنا، لم يرضى أحد
ذهابي لكنني أصريتُ على الذهاب، ليس
فقط من أجلِ إنقاذِ ذلك الطفل، لن أكذب
هنا، أردتُ ذلك لأنه ذكرني بابني الحسن
وكان من ذاهبٍ لإنقاذه هو الحسن،
هياتُ نفسي للخروج، أخبرتُ نسمة أن
تعتني بذاتها وبالجميع وأخبرتها بأن
تكونَ قويةً إن حدثَ لي شيءٌ وأن
توصل رسالتي وحبِّي لابني وزوجتي ان
استطاعت مع الأيام لكنها أخبرتني أنني
سأعودُ وأوصلُ سلامي لهما بذاتي.



بينما فارس كان قد حضر نفسه وقال لي:

- هيا بنا.

نظرتُ له وابتسمتُ وذهبتُنا كأنا نخرجُ
خارجَ العراقِ إلى دولةٍ أخرى أبنيتها
جميعها أرضية، شوارعها فارغة،
سمائها سوداء، هدونها يحتويوي الكثيرَ
من ضجةِ الحرب، قذائف، انفجارات،
ورصاصٌ في كل مكان، لم تصبنا أنا
وفارس أيةُ رعدةٍ خوف بل كنا نسيرُ
فقط ونبتسمُ بوجهٍ بعضنا الآخر فقط،
نعلمُ أنَّ نهايةَ الطريقِ لن تكون متوقعة،
فالموت أو النجاة، لا نتوقعُ كلاهما لكننا
نعلمُ أن أحدهما سيحدث، هذا ما كان
يجعلنا نمضي للأمام، مشينا في ذلك
الطريق أنا وفارس كأيامنا السابقة في



عصر الطفولة حيثُ كانت الطفولة هي السائدة في ذلك الوقت، تفاصيل الضحك والسعادة التي تغمرُ وجنتينا استبدلت الآن بتفاصيل القلق، كنا ننظرُ لبعضنا ونعلمُ أن نهاية الطريق الذي نسلكه ليست محسوبة لكننا افتخرنا بما فعل، لأن البداية التي بعد تلك النهاية ستكون أجملُ مما نتصور، عبرنا الشارع الأول، فالثاني، وصلنا إلى أعلى نقطةٍ من إفراز الأدرينالين، الهدوء في معظم الأحيان يعطي راحةً نفسية لكن في حالتنا هذه كان قد وصلَ إلى مجالٍ عكسيّ، كان هذا الهدوء قبل العاصفة التي تنتظرنا، بعد أن قطعنا خطوةً في الشارع الثالث زال هذا الهدوء بصوتٍ تهیئة سلاحٍ خلفنا



للإطلاق، بصوتٍ أجنبيٍّ يأمرنا بأن
نجلس على قدمينا دون حركة ثم وُضع
كيسٌ أسود على رأس كل واحدٍ منا،
وصعدنا على متن سيارةٍ لا أعرفُ
وصفها، قال فارس لي حينها:

- لا تقلق يا أخي، إن لم نمت سنعودُ
ونروي قصتنا، وإن متنا فأننا سعيدٌ جدًا
أنني سأموتُ برفقةٍ أغلى أصدقائي، لذلك
اطمئن.

- لقد أرحتَ قلبي يا فارس، شكرًا لك،
سأموتُ مطمئنًا الآن، أو لن أموت كذلك،
المهم أنني مطمئن.

كنتُ قد قلتُ ذلكُ بدافع المزاح، فهمني
فارس وضحك لكن كلانا يعلم أن ما قاله
فارس هو الخيارين الوحيدين اللذين



نملكهما، لا مفرَ من ذلك سوى التجاهلِ
بمعرفة الواقع وانتظارِ عنصرِ المفاجأة،
أتمنى أن يكونَ ذلك العنصر لصالحنا،
توقفت السيارة، نزلنا أنا وفارس منها
على الفور، أخذونا إلى مكانٍ أسفل
الأرض لأننا قد نزلنا بحوالي طابقين إلى
تحت الأرض، حينها فُتحت زنزانة، فكوا
وثائقنا ودفعوا بنا إلى الداخل، أزلنا
القتاع عنا ونظرَ كلُّ منا بالآخر، نحنُ
أحياء، حضنا بعضنا، نظرنا حولنا كانت
غرفة صغيرة جدًا مع القليل من الضوءِ
الخافت القادم من أحدِ القناديل في الممرِ
الخارجي للزنزانة، كانَ هناك رجلٌ
جالسٌ على الأرض، عرفنا ذلك بعد أن
داسَ عليه فارس دونَ أن يعلم، كانت



حالة ذلك الرجل مزريةً كثيراً لكنه كان
قويّ البنية، ممتلئ الجسد، نهض قليلاً
وقال:

- مرحباً بكم في جوف الأرض.

كان اسمه كرم، كان فلسطينياً من أبيه،
تركياً من والدته، يقطن في أحد أحياء
بغداد، سألناه عن سبب تواجده هنا، كان
السبب هو قتله لأحد الجنود الذي حاول
الاعتداء على زوجته، أصبح الدفاع عن
العرض جريمة، أخبرناه بالصبر ثم
تعرفنا على بعضنا أكثر، أخبرنا حينها
عن موطنه قليلاً:

- مدينتي الأصلية تدعى مدينة الظاهرية
ظاهرية صفا التي دمرها الإسرائيليون
عام ١٩٤٨ تشرد من تلك المدينة ٣٥٠



نسمة عام ١٩٥٠ ، وقد ذاب موقع
القرية في جملة الأحياء الجنوبية من
مدينة صفد اليهودية التي أنشئت بعد
عام 1948 ، إلى الشرق قليلاً مدينة هي
التوأم لمدينتنا الأصلية تدعى أيضاً
الظاهرية، الظاهرية الفوقا تهجر منها
أيضاً أناسها ودُمرت عام ١٩٤٨ ، المهم
بعد هذه الأحداث اتجه جدي مع عائلته
إلى لبنان، وعندما توفي جدي كان
والدي في عمر الـ ٣٥ عام تقريباً، ذهب
في عمل للعراق تعرف على والدي هنا
وهكذا حتى أنجبنا وأصبحنا في هذا
العمر، هربنا من الحرب هناك فوجدنا
الحرب هنا، كنت أريد شيئاً واحداً فقط
أن أرى جثة والدي وأخوتي لأودعهم



لكنني لم أعر على أي منهم، أشلائهم
انتشرت في جميع نواحي العراق حتى
وصلت إلى بلدتنا هناك، في الظاهرية
دفنَ شيئاً وحيداً منهم فقط وهو قلبهم،
وقلبنا كنا قبل الموتِ وبعدها، الآن أريد
الخروجَ من هنا فقط لأقاتلَ كلَ قاتلٍ حتى
أُستشهدَ ويعودُ جسدي إلى أهلي، وقلبي
إلى مدينتي، المدينة التي لم أرها ولا
أعرفُ شيئاً عنها سوى أنني أحبها.

أبكاني حديثه، جلستُ قليلاً أواسيه لكن
هذا الألم لا يُعالجُ لأنه مزمن، إنه من
النوعِ الحادِ أجل لكنه حادٌ مزمن،
مختلفٌ في مفهومه حتى قبل شعوره،
علينا الاعتيادُ عليه مع الوقت أو ربما لا
نعتاد لا أعلم، أتى الليلُ فيه ليحرر قلبي



من جديد في كتابة رسالتي الثانية، على
ورقة وقلم كنت قد خبئتهم في جيبتي
كتبْتُ فيها:

- "رسالتي الثانية، تاريخ ٢٣ آذار
٢٠٠٣، مساء الخير يا حبيبة قلبي، هل
النوم قليلاً صعباً لهذه الدرجة؟ أسألك
فقط لأنني لم أنم منذ تركتك يا حبيبتي
وخرجت إلى هنا، لا أقصد هنا النوم
بالمعنى الحقيقي حرصاً من المبالغة،
فأنا ما زلت أغمض عيني بسهولة لكن
الألم يكمن في الوقت الذي أغمض به
عيني، لا أعرف متى سأفتحهما من
جديد في أمل رؤيتك مرة أخرى، مجرد
إغماض عيني كفيلاً بإظهارك، ربما لهذا
كنت أغمضهما فقط، آلاف الحروب تتبع



عند تلك اللحظة، وأكثرُ الحروبِ إيلاَمًا
هي معرفةُ أنَّ ما أراهُ مجردَ خيالاتٍ
هاربةٍ من ذكرياتِ الواقع، هنا أضطرُّ
للقوفِ مجددًا وأحاولُ رفعَ جفنيَّ إلى
الأعلى لإنهاءِ تلكِ الحروب، جازتني
بعيدًا إحداها، فقد ضمتُ خيالكِ أكثرَ من
المدةِ الزمنيةِ المعتادة، خسرتُ فيها
كثيرًا من جنودي، لم ينفع رفعُ الرايةِ
البيضاءِ فقد يظنونني أعدائي حينها
محتالًا، والرايةُ البيضاءُ هي علمُ دولتي،
في هذه المسألة هنا اضطررتُ يائسًا
إظهارِ اللونِ الرماديِّ بشكلٍ كاملٍ
بالابتعاد عن النوم، ومحاولةِ إغماضِ
عيني فقط كي لا أرى عدمَ وجودكِ، ربما
كانت طريقةً مؤلمةً أكثرَ من سابقتها



لكنني هنا حققتُ الدماء فقط لحين العودة
لك، هكذا كنتُ ضائعاً في لحظاتي
الفارغة منك، حبيبتي أنا صغيرٌ جداً في
تلك السماء والأرض البعيدة عنك لكن
اليوم رأيتك في حلمي بطريقةٍ مختلفةٍ
عن سابقتها، رأيتك في وهلةٍ أعطتني
إياها الحياة كاستراحةٍ محاربٍ بعد وقبل
الحرب، كنتُ أعلم أنه حلمٌ رغم ذلك
بقيتُ هناك بين أحضانِ صورتك التي
جاءت من أجل أن تبقيني قوياً، بعدها
وقفتُ الحياة عن معاملتها اللطيفةً معي
حتى في الحلم، قتلتك وجعلتكِ ترحلين
عني، عدتُ مسرعاً إلى إنهاءِ تلك
الحرب وفتحتُ عينيَّ إلى فرصةِ الواقع
لأن وجودك بخيرٍ وسلامةٍ أهونُ عليَّ



من رؤيتك هكذا حتى لو كان شرط
الحياة في ذلك أن تبقي بعيدة لكنني
سأعاتبك قليلاً لأنك حتى عن حلمي
ترحلين، لماذا تحولين الحلم إلى ذلك
الكابوس الواقعي المؤلم؟ لم أعتب عليك
كثيراً ففي النهاية أنت لست مذنبه
كالحياة رغم أنك الحياة بالنسبة لي لكنك
تفردت في إظهار معنى الحياة بأن تكون
اسماً على مسمى قبل كل شيء، لست
أتكلم ألماً فقط بل شوقاً، قد أصبح كل
يوم لي عبارة عن رؤية الموت والحياة،
والمساعدة في شفاء من كتب الله له
الشفاء ثم أنتظر يومي لينتهي لكي أكتب
لك من جديد، زائراً لك في نهاية يومي،
وبشكل مختلف، كان يومي هذا لا ينتهي



لكن أشرعة الليل أتت، ظننتُ اليوم أنني
لن أستطيع كتابة رسالتي بسبب بعض
الحالاتِ المأساوية في هذه اللحظات،
سامحيني إن لم أستطع بيومٍ من الأيام
ذلك، أنا متأكدٌ من أنكِ فعلتِ ذلك قبل
طلبتي له، لن أكتفي من برنامج قلبي
الذي سيجعني أكتبُ لكِ كل مساء،
وأذكركِ كل صباح، وأشتاقُ لكِ بين تلكِ
الحصتين، حبيبتي سأقولُ لكِ في نهايةِ
كلامي اليوم الذي لن أستطيع أن أنهيه
سوى بكلمةٍ واحدةٍ أبدأُ بها دومًا وهي
تعتمدُ على قلبي كثيرًا في أخذِ أمرها،
فتخرجُ منه راميةً نفسها على حبالِ
صوتي لتعزفَ نفسها وتخرجَ كاللحنِ
الموسيقيّ، فيرميها لساني حينها لتخرجُ



من فمي وتسمعي الحياة من جديد أقول
لك أحبك يا نجمتي، وداعًا حبيبتي،
أحبك، طيبك."

كنتُ أعتقد أن الساعات القادمة ستكون
من نصيب النوم لكنني أخطأت الظن
مجددًا، في الساعة الرابعة صباحًا حدث
انفجار قريب أيقظنا من نومنا المتعب،
تلاه اشتباك قوي، استمر مدة نصف
ساعة ثم أتى جندي عربي مسرع، فتح
جميع الزنانات هنا وطلب منا الخروج
بهدوء ثم الهرب بسرعة، كنا حوالي
العشرة رهائن ربما هذا ما رأيته في
الظلام، قطعنا مسافة قليلة عن الاشتباك،
بحثنا عن بعضنا، فارس وجدني، سألته
عن كرم، أخبرني بأنه مصاب، أسرع



إليه لكنه كان يلفظ آخر ما تبقى منه،
طلب مني قائلاً:

- أيها العربيّ إن حدثَ ونجوتَ من هنا أريدك
أن تذهبَ إلى سوريا، قد هاجرتُ والدتي إلى
هناك بعد أن تركها والدي وبقيتُ معه هنا،
أريدك أن توصلَ سلامي لها، قل لها أن
اسمها كان آخرَ شيءٍ لفظتهُ.

وأخبرني عن اسمها ثم ذهبَ في نومٍ
عميقٍ تاركًا عيناهُ أيضًا مفتوحتين،
أغضتُ لهُ عينيه ثم وضعتُه هناك في
ذلك المكانِ المهجورِ من الحياة، الممتلئِ
بصرخاتِ الموتِ الصامتة، الناطقةِ فقط
عن طريقِ إبقاءِ العيونِ مفتوحة، وداعًا
يا كرم، وداعًا رغمُ أنه للوداعِ بقية لكن
لا يمكنني سوى الوداع، وداعًا.



قال لي فارس أن علينا الذهاب حالا، لم
أجد أحداً غيري أنا وفارس لكنني سمعتُ
بكاءَ طفلٍ قريب، بحثتُ وناديتُ من هنا
وانا مستلقٍ على الأرض لا يمكنني فعلُ
شيء، زحفتُ قليلاً نحو الصوت، وجدتُ
ولداً يبكي هناك، قلتُ له:

- ما اسمك أيها الصغير؟

أخبرني أن اسمه الحسن، ضممتُه
لصدري، بكيتُ قليلاً حينها، عانقتي هو
أيضاً، ربما شعرَ بما أشعر، في عمرهم
أعتقدُ أن وظيفةَ قلبهم أكبرُ من عقلهم،
طلبتُ منه المجيءَ معي، لم يستطع
القيام، كان مصاباً في قدمه اليسرى، لم
يكن معي شيء سوى أن خلعتُ كنزتي
ولففتها على قدمه وحملتُه على ظهري.



وقلتُ لفارس:

- هيا يا صديقي.

ركضنا لا نسابقُ أحداً نسابقُ الموت
والحياة، من يسبقُ أولاً؟ نحاولُ أن
نكونَ نحن، لم أندم أنني سلكْتُ هذا
الطريقَ رغمَ نسبةِ الموتِ الكبيرة،
سلكْتُ الخطوة الأولى التي علمتُ أنني
في فعلي هذا وضعتُ قدمي الأولى في
الأمام، وأنني إن لم أكمل سأخسرُ قدمي
الثانية في الخلف، ركضتُ بعدَ هذه
الخطوة، أخبرتني الحياة واختبرتني،
جعلتني أترددُ في التفكير الطويل، أرمي
نفسي حيثُ لا تكونُ الحياة هناك، أحاولُ
استدعاءها بكاملِ قوتي، دعائي يسبقُ
مهنتي، ثم أحاولُ، أحاولُ وأحاول، لعلَّ



أحدَ تلكَ المحاولات تجعلني أفتحُ عيونَ
بعضِ الناس هنا بدلاً من إغلاقها،
وصلنا، ناديتُ بأعلى صوتي:
- علياء.

أتت مسرعة، لم تنم علمتُ ذلك، طلبتُ
منها مساعدتي في إسعافِ الحسن
بسرعة الذي فقدَ وعيهُ من كثرةِ ما فقدَ
من الدم، وقلّةِ الطعام، بينما نسفهُ أتت
والدتهُ مسرعة، بدأتُ بالبكاءِ والنوحِ
بقربي والنداءِ بـ:

- حسن، بني الحسن، ماذا حصلَ له؟
أخبرني هيا ماذا به؟

طلبتُ من فارس بصوتٍ عالٍ:

- أخرجها من هنا، فارس أخرجها.



بعد بضعة من الوقت استيقظ الحسن،
طلبت من علياء أن تنادي لوالدته لكي
تراه، خرجت بعدها إلى الخارج، أشعلت
سكارة كنت قد أخذتها من كرم، طلب
مني تدخينها عندما أكون في حالة سيئة
أشربها، أرى وهجها، لم تكن هي من
تحترق، كنت أنا، في كل سحبة أخذها،
دخانها يخرج من حريق اندلع بداخلي،
لم تبقى أية مطفأة للحريق، استخدمتها
كلها، حتى الأخيرة التي كانت موجودة
في صندوق سري بداخلي، اضطررت
لاستخدامها في آخر لحظة، حين مات
كرم، هل سأفشل في فعل ما جئت لأجله؟
هل سأنجو وأرى طفلي وزوجتي مرة
أخرى؟ بعد أن وصلت إلى حياتي التي



كنتُ أحلمُ بها دومًا، مستيقظًا بداخلها،
الآن نمتُ مجددًا لأحلمَ بها، هل
سأستيقظُ مرةً أخرى بقربكِ يا حبيبتي؟
إن كان سيحصلُ ذلك، فأنا شبعْتُ من
النومِ كثيرًا، أيقظيني الآن يا ليالٍ،
أيقظيني الآن يا وردتي، أيقظيني الآن.

- هذه أول مرةٍ أراكِ تدخنُ أيها الطبيب!

- أهلا عليكِ، نعم، ربما لأنني أعلمُ أنها
لن تفيدُ إلا في زيادةِ ضرري الصحيِّ
لكنني أشربها لروحي لا لصحتي، روعي
توَلمني من الداخل، لا يوجد مخدر أو
مسكن في مجالنا لهذا الألم، جربتُ هذا
لعلي أجدُ فيها ما يفتقرُ إليه الطب.

- لو أنني لا أعلمُ من أكلم لقلتُ عنكِ.



- مجنون، صحيح، ربما أكون كذلك، فلم
أفعل حتى الآن شيئاً يدل على استخدامي
لعقلي، لحقت قلبي دائماً، ها أنا هنا، بين
الموت طوال الوقت، علياء، أنا لا أجد
كلاماً أصف به ما بداخلي، أعلم أنني
طبيب ومن الطبيعي جداً أن أرى الموت
لكنني أعيشه الآن، في كل حالة موت
أرى جزءاً من روعي يذهب، في جهة
أرى يداً تلوح لي، يأتيني صوت من
خلفي يناديني فأنظر، اختفى الصوت،
أعود بنظري للوراء، اختفت تلك اليد،
بكاء كل طفل هنا لا يزال داخل أذني،
أرى تلك الوالدة التي تحمل أحجاراً
وترميها باحثة عن ابنها تحت الأنقاض،
لا ملاذ لي سوى ليالٍ لكنها أين؟ وأنا



أين؟ هل الحياة بخيلة لهذه الدرجة أن لا
تعطيني لحظة منها للهرب إلى حضن
حبيبتي، أنا من أحاول بكل قوتي وعون
الله أن أبقي الحياة موجودة في هذه
البلاد، أهكذا تكافئني الحياة بأن تهرب
هي بدلاً مني، أراها تهرب من كل
شخص أحبته، أصرخ لها، توقفي قليلاً،
أبقي هذا الشخص قليلاً لأراه قبل أن
تهربي، لم أودعه بعد، لكنها لا تسمعني،
كان صراخي فارغاً طوال الوقت، لا أعلم
إن كنت سأنجح في فعل ما أتيت لأجله
لكنني تعبته، ربما حان الوقت للتفكير
بالهرب منها قليلاً لطي أجد طريقة ما،
أنا آسف يا علياء لأنني أحزنتك قليلاً
بكلامي لكنني أظن أن الوقت الآن حان



لكي أقول لكِ تصبحين على حياة، وداعاً
يا علياء.

- أحمد، هل لي بطلبٍ واحدٍ فقط.

- أحمد! كدتُ أنسى اسمي، لم أسمعهُ
منذُ فترة، ربما شعرتُ بهذا لأنني لا
أسمعه من ليالٍ، أخبريني بطلبك.

- لا تتادني بعلياء، قل لي عليا، أحبُّ
لفظها هكذا أكثر، وأريدُ أن أقولَ لكِ فقط
أنَّ الحب هو الصندوقُ السريُّ الذي
نأخذُ منه الحياة، فكر قليلاً بسببِ قدومك
لهنا، وابقِ قوياً كما رأيتهُ أولَ مرة.

- تصبحين على حياة يا عليا شكراً كثيراً لكِ.

ذهبتُ للنوم قليلاً بعدها، تقلبتُ كثيراً،
نامت بعدها عيني، وبقيَ عقلي مستيقظاً



يفكرُ في الغد، استيقظتُ في الساعة
الثامنة من:

٢٤ آذار ٢٠٠٣

غسلتُ وجهي، خرجت لأجدَ علياء تعملُ
كما المعتاد تطمئنُ على الجميع، كان
صباحًا هادئًا قليلًا، رأيتني فركضت لتقولَ
لي:

- صباحُ الخير، هل يمكنني أن أطلبَ
منك شيئًا؟

- صباحُ الخيرِ يا عليا، إن كان ذلك
الشيء في سعةِ عقلي، اطلبي، لكن إن
كان يحتاجُ قلبي فاهدئي عليَّ قليلًا، لا
تعبسي هكذا، أخبريني.



- لا في الواقع هو يتطلب الاثنين لأن
هنالك فتاة فقدت عائلتها وهي تجلس
هناك، لم أجد أفضل منك لتكلمها.

- عليا أنا طبيب بشري ليس نفسي، حسناً لا
تقلقي أو تعبسي مرة أخرى، سأكلمها.

ذهبت بعدها إلى الخارج قليلاً ليس بعيداً
جداً لكنني فقط خرجت لأتنفس قليلاً،
ربما يحتاج الطبيب أن يتعلم مادة أخرى
في علمنا لكي يتعلم كيف يواسي غيره
في منتصف حاجته للمواساة، أن يأخذ
سكينة ليجرح قلبه ويروي منه الحياة
من جديد، لا أعلم إن كان ذلك الجرح
سيغلق يوماً ليحين الوقت الذي يرتوي
هو به، برويتك يا ليال، ذهبت باتجاه
الفتاة، كانت تضع رأسها بين قدميها



وتبكي، تبين لي أنها عشرينية²⁸ في
عمرها ربما أكبر، ربما العكس.

- صباح الخير أيتها الجميلة.

- أنا لست جميلة، والصباح ليس خيرًا.

- لا، لا، هكذا سأحزن منك كثيرًا، قل لي
لي الآن ما اسمك؟

- اسمي فرح، أنا اكرهه، لم أحظى
بمعناه طيلة حياتي.

- وهل انتهت الحياة حتى تقولين ذلك؟
اسمعي يا ذات الاسم الجميل، أعلم أنك
فقدت عائلتك، هذا مؤلم بالتأكيد وكثيرًا
أيضًا لكنه إن كان سببًا للألم فهو ليس
سببًا للاستسلام.



- لكن الجميع استسلم وتركني وحدي،
جميعهم ذهبوا وتركوني في هذه الحياة
البائسة.

- لا يا فرح هم لم يستسلموا، هم أكملوا
مهمتهم الطبيعية وانتهت الآن لكن لا
يمكننا تسمية ذلك بالاستسلام.

- لم أفهم شيئاً عليك، لا أعلم ماذا أفعل،
لم يعد لي مكان في هذه الحياة، أتمنى
أن ألحق عائلتي وأموت.

- اسمعي يا فرح، الموت ليس استسلام
فهو أمر طبيعي، جميعنا سنموت لذلك
عائلتك لم تستسلم لكن عدم محاولة
العيش قبله هو الاستسلام، فلسنا كلنا
سنعيش، أريد منك أن تفكري في ذلك،
وأن تعلمي أن آخر ما تريده عائلتك الآن



هو استسلامكِ لذلكِ افعلي شيئاً إن لم
يكن من أجلكِ اعتبريه من أجلهم، هيا
اغسلي وجهكِ وابدأي بالحياة من جديد،
واجعلي حزنك سبيلاً لتحقيق حلمك لا
لهدمه يا فرح لأن الألم سيزول، إن
احتجتِ شيء فأنا هنا، وإن لم أكن
فقلتِ علياء من خلفي وهي مبتسمة:

- فأنا هنا.

حينها وقفتُ لكي أذهب لعملي فنادتُ لي
فرح، نظرتُ لها، قالت لي:

- أيها الحكيم، صباحُ الخير.

- صباحُ الخير يا فرح، صباحُ الخير.

عشتُ في حياتي كلها أبحثُ عن الحب،
حين رأيتُ ليالٍ عثرتُ على الاثنان معاً،



حياتي والحب، لم أعش كثيرًا في هذه الحياة، الآن أنا في فترة مؤقتة من خارج الحياة، لا أعلم متى العودة، وردتي أيقظيني، طلبتُ هذا كثيرًا أعلم، هذا ربما لأنني تعبْتُ من النوم (عدمه)، وإن أردتُ وصف نفسي، سألخص ذلك في جملة واحدة: (مغترِبٌ عن حياتي)، نادى لي علياء، سألتني عن المكان الذي شردتُ به، أخبرتها:

- أنا هنا، قل لي ماذا يوجد لدينا اليوم؟ كأنني لم أرى شيئًا جديدًا اليوم، ذات الناس هنا، كأنك أيضًا قمت بالاطمئنان عليهم جميعًا وأرسلت بي إلى تلك الفتاة، إن خرجنا من هنا سالمين، أتقبلين أن تكوني مساعدتي يا علياء؟



لم تُبدي ردة فعلٍ سوى الصمت والنظرُ
إلى عيني، طلبتُ منها أمرًا غريبًا نعم
لكن الحياة كتبت أكثر من ذلك لاحقًا،
جاءت موافقتها بعد ذلك، قالت:

- بالتأكيد كأنك تسألني إن كنتُ أريدُ
تحقيقَ حلمي، هل يمكن أن أتمنى أكثر
من ذلك؟ العمل عندك حلمي الدائم.

- العملُ عندي! لا تقولي ذلك قولي
العمل معك فأنت لستِ بنظري إلا طيبة،
لا تقللي من شأن ذاتك، ارفعي نفسك
فوق السماء، لا تظني أن العلو سيء،
لا، التعالي هو الشيء السيء فلا تخلطي
بينهما، أحدهما للأعلى والآخر للأسفل.

- كأنك لم تنم جيدًا، لا أعلم عن ماذا
تحدث لكنني أظن أنني لخصتُ من



كلامك قليلاً سافهمه لاحقاً، لكن هل ترى
أن الهدوء هذا مبشرٌ للخير؟

- لا أعلم، الهدوء هو أجملُ شيءٍ في
هذه الحياة إلا الهدوء الذي يأتي قبل
العاصفة، أخافُ هدوءَ الحربِ هذا أن
يكونَ كذلك، وأدعو الله بكلِ خير، هيا
أذهبي لنطمئن على الجميع هنا ونحتاطُ
من أي إنذارٍ سوء.

هنالك جُملٌ صغيرةٌ الكلمات لكنها كبيرةٌ
إلى حدٍ كافي كي تشرحَ هذه الحياة، لم
أكن أعلم هذا قبل التأكد من صحتها،
كانت طريقة التأكد صعبةً جداً حتى
أوجبت العيشَ فيها، الجمل التي قالها لي
صديقٌ قديم:



- "مهما حزنت خُن شعورك وابتسم،
مهما بكيت خُن عينيَّك وابتسم، حتى
الحياة خُنّها وابتسم، لكنّ الشوق ربما
سيؤخرُ تلك الابتسامة قليلاً حتى تلتقي،
لكنك في النهاية الجميلة تلك ستُلقِي كل
شيءٍ ذكرته لك وتبتسم."

الآن أنا أحمِلُ بداخلي حزناً، عينيَّ تبكي،
والشوقُ أهلك أضلّعي، لا أعلم إن كان
أمرُ الابتسامة الآن صحيحاً، لا أستطيعُ
فعلَ ذلك قبل أن أرى ليالٍ، ربما لن
أستطيع، رغم أنني أبتسمُ في صورتها
لكن معرفة أنها ليست هنا تمحي تلك
الابتسامة وتسقطُ شفّتي في اتجاهٍ
عكسي لا يدعني أبتسم، فلا أبتسم،
شعرتُ هنا أن هناك أحداً يشدُّ ثيابي من



الأسفل، نظرتُ فإذا بفتاةٍ صغيرةٍ تحملُ
دُبًّا ممزقًا وتبكي بصوتٍ صامت، نزلتُ
على قدميَّ سألتها:

- ما بكِ أيتها الجميلة؟

لم تجب، أعدتُ السؤال لكنها لم تجب،
تبكي وتؤشّرُ لي على دميّتها الصغيرة،
أخذتُ دميّتها ودخلتُ إلى الداخل، أعدتُ
خياطتها وأصلحتها من جديد ثم أعطيّتها
للك فتاة فابتسمت وعانقتني، قلتُ في
ذاتي حينها عن الحب كلامًا يحملُ بعضَ
الحياة:

- "الحبُّ لا يحملُ معنًا واحدًا، ربما يأخذُ
حبنا المال، الشهرة، السلطة، القتل هذه
بعضُ من المعاني يحملها الحب ويقتلُ
نفسه بها، أظنُّ من يحملها هنا هو من



يُدمرُ هذه البلاد الجميلة، في الاتجاه
المعاكس يحملُ الحب معاني أخرى لن
أذكرَ منها شيئاً سوى حبِّ هذه الفتاة
الصغيرة لهذه الدمية كأنها فقدت عزيزاً
ثم استعادتْ فابتسمت"، هذه ابتسامة
جديدة سأضيفها إلى ما قاله لي صديقي
لأن هذه الابتسامة جعلتني ابتسم لذلك
سأقولُ في جملةٍ جديدة:

- إن خانتك ابتسامتك، فاذهب إلى وجه
طفلٍ صغيرٍ بريء، وابتسم.

تسرقُ الساعةُ مني أيضاً هنا وهنا،
كانت الحالات الجديدة في هذا اليوم قليلة
ظننتُ ذلك حتى الساعة الثانية ظهراً،
حدثَ أمرٌ مخالفٌ لبقية الأوقات التي
عشتُها هنا، قد جاء اليوم مولودٌ صغير



هنا، وُلدت حياةً جديدةً بدلاً من الموت،
أحد النساء التي كانت تسكنُ أحد الأسرّة
بدأت بالصراخ، ركضتُ إليها فإذا بها
تصرخُ لأن ابنها وصل إلى آخر مرحلةٍ
من الحياة داخل الحياة، لينتقل لمرحلةٍ
الحياة داخل الموت، أسرعنا حينها
للمساعدة، الجميعُ هنا ينظرُ إلى ما نقوم
به، لم تكن نيتهم سيئة أرادوا فقط
مشاهدة ولادةٍ جديدة بدلاً من فقدٍ مستمر
بقينا أنا وعليّا نعملُ على إخراج ذلك
الطفل حتى حل الظلام، أصابَ عليّا
بعض اليأس الذي قادها للتفكير
بالقيصرية لكنني أعلمُ أن هذا الأمر خطرٌ
جداً على امرأةٍ عانت من بعض الجوع
لثلاثة أيام بالإضافة للخوف وغيره من



أمور الحرب لكن في النهاية استطعنا
إخراج الجنين، طلبت مني والدته القيام
بالآذان في إذنه لأن والده لم يستطع
القدوم إلى مولد ابنه بسبب الموت،
فعلت ذلك، سألت والدته:

- ما اسمه؟

قالت لي: بنظري وفي الوقت الراهن لا
أفكر إلا باسم واحد فقط وهو أحمد على
اسم والده، واسم الطبيب الذي ساهم في
إدخاله للحياة، هل تناولني إياه لأراه
قليلاً لو سمحت، دعني أرى فلذة كبدي.

بعد أن رأتها وحضنته قليلاً أغضت
عينها لتذهب في نوم عميق، حاولنا
إنقاذها لكن الموت قد سبقنا، لم يرغب
في أن أغير نظرتي عنه، فليالي الحرب



هذه تأخذُ على غفلةٍ من تريد، يسيرُ بها
الموت دون معرفةِ الوجهة، يأخذ كل من
في طريقه، عجوز، امرأة، طفل، رجل
وكل شيء، لكن الغريب هنا أنني بعد
الكثير من الموتِ خلال هذه الأيام، رأيتُ
أحدًا يتوفى مغلقًا عينيه، لحظةً غريبة،
يختلطُ الفرحُ بالحزن، الموت بالحياة،
لنرى ما رأيناه، أعطيناها حقها بالدفنِ
لتلك المرأة لکنني جلستُ محتارًا في
معرفةِ ما الذي سأفعلهُ بهذا الرضيع،
طعامه وكل شيء، إنه يحتاجُ إلى أم،
صرختُ بأعلى صوتي:

- هل من مرضعةٍ هنا؟ هل هنالك امرأة
تبرعُ بوقتِها وراحتها لترعى هذا
اليتم؟



لم يجبني أحد، أصابني الإحباط الذي
جعلني أديرُ ظهري لكن قبل ذهابي
سمعتُ:

- أنا، أنا بإمكانني فعلُ ذلك، لقد أفطمتُ
ولدي منذُ يومين، يمكنني أن أرعى هذا
الطفل وستساعدني أختي في رعاية
ولدي.

شكرتها كثيرًا، وأخبرتها أن دعاء والدته
ووالده سيصلُ إليها أينما كانت، وطلبتُ
منها اخباري بأي شيء قد تحتاجه
وسأسعى بكل ما أملك لتلبية ذلك، ذهبتُ
بعدها إلى الخارج قليلًا ثم عدتُ إلى
داخل أحد الغرف، جلستُ وحدي أفكرُ
بما حدث، وما سيحدث، جاء فارس
حينها ليقطع هذا التفكير بأحد الأسئلة



الغريبة بواقعها، المؤلمة بوقتها، حيث
سألني مسرعًا بنبرة مرتجفة:

- كيف هو الشعور حين تصبح أبًا؟

- مسؤولية جديدة، تفكير زائد، تعلق
أكبر بالحياة لكنه أجمل شعور ممكن أن
يحصل في هذه الحياة، هل تعلم يا
فارس؟ لقد كنت في أحد الأيام القديمة
جدًا أصلي بالمسجد، دعوتُ لله بالقوة،
الرزق، الطعام وكل شيء يمكن لفتى
صغير أن يدعو به، حين انتهيت وقفتُ
لكي أرحل، التفتُ ووجدتُ فتًا صغيرًا
يصلي خلف والده، كان شكله يوحي
على أنه بعمرى، بقيتُ حينها واقفا أنظرُ
إليهما، شعرتُ حينها بأمرين تمنيتهما،
شعور الفتى بوجود والده بقربه،



وشعور الأب بكونه كذلك، حينها عدتُ
لأصلي ركعتين وأدعو الله بطلبين فقط،
الرحمة لوالدي، وأن أصبح أباً في أحد
الأيام، حين رزقتُ بالحسن ورأيتُهُ للمرة
الأولى، شعرتُ بأن الطالبين تحقّقا، بكيثُ
حينها، هل تعلم أنني كنتُ الطبيبَ
المشرف حينها لكنني لم أستطع القيام
بتلك العملية، كنتُ حينها فقط أباً يمشي
بعكس سيره كل دقيقة أمام باب العمليات
منتظراً بكاء طفلي لأبكي خلفه، سجدتُ
شاكراً ربي، شعرتُ كأنني أملك الدنيا، لم
يعد يهمني شيء سوى أن أفعل كل ما
بوسعي ليحظى ابني بحياة رائعة، والآن
أدعو الله بكل سجدة أسجدها أن أراه
مرة أخرى، اشتقتُ لاحتضانه يا فارس،



كنتُ أعملُ كل يومٍ منتظرًا لحظة العودة
للمنزل كي أراه، حتى ليالٍ حينها غارت
من ذلك قليلًا لكنها كانت تعلم أنني أنظرُ
لأكثر شيءٍ تمنيتُهُ في هذه الحياة، أن
أحظى بولدٍ من الفتاة التي أحبها، هل
سأراهم مرةً أخرى يا صديقي؟

- ستراهم يا صديقي، بإذن الله ستراهم،
خلفَ هذه الحرب أرى أبًا جميلًا يحملُ
ابنهُ ويضمهُ وتحضنه حبيبته ولياته من
خلفه، سادعو أيضًا لرؤية ذلك.

- بإذن الله يا صديقي، كلامك أطفأ قليلًا
من تلك النيران التي تسكن داخلي، شكرًا
لك يا أخي لكن قل لي لماذا تسألني ذلك؟
هل اشتقتَ لزوجتك وابنك؟



- زوجتي وابني! لقد كذبتُ عليك يا صديقي، تعلمتُ هذه الكذبة من حياتي العسكرية، حين أرى كل جندي يمسكُ صورةً صغيرةً تحملُ إما زوجته أو أولاده أو الاثنين معًا، تلك الصورة كانت لجندي استشهدَ بقربي فأخذتها منه وكذبتُ تلك الكذبة على جميع من معي، لكن اليوم بعدما رأيتُ ذلك الطفل الذي ماتت والدته بعد ولادته، شعرتُ بداخلي هذا الشعور.

- أيّ شعورٍ يا صديقي؟ أخبرني، ولماذا كنت مضطراً لكذب تلك الكذبة؟

- شعرتُ وكأن شخصاً يخنقني من الداخل لكن نفسي لم يكن ينقطع بل تنفستُ بشكلٍ أسرع كأنه أصبح لي أكثر



من رئتین، الأمل بآتني من الممكن أن
أصبح يومًا ما أبًا، تمنيتُ ذلك جدًا لكن
لوهلةٍ قصيرةٍ ثم توقفتُ عن التنفس
وذهبتُ رئتني الإضافية، بقيتُ بلا تنفسٍ
لوهلةٍ ثم نظرتُ بعدها للخارج، نحنُ في
حرب، هل سَأعيشُ للغد؟ هل سَأعيشُ
في الغد؟ لبعْدِ الغد؟ شعرتُ أن هذا ما
يجبُ أن أفكرَ به الآن، بذاتِ الوقتِ
تذكرتُ أنني لا أستطيعُ أن أضع الحرب
حجةً على هذا الأمر، فأنا لم أجد من
تُحبني لتجلبَ لي ابنًا فأنا لستُ رقيقًا
لتشفقَ فتاةً على واحدٍ مثلي وتحبني
لهذا السبب كنتُ أخترعُ هذه الكذبة
لتغطيةٍ ضعفي الذي يقتلُ داخلي ذلك
الأمل، حسنا يا صديقي أنا أعتذر عن



هذا السؤال الغبي الذي جعلني أقاطع
وقت راحتك، أراك لاحقًا.

- فارس توقف قليلًا، حسنًا سأنسى أنك
كذبت عليّ وأنت يجبُ عليك ذلك، لن
أتحدث عن هذا الأمر إطلاقًا، أريد فقط
أن أقول لك شيئًا واحدًا، ليس من المهم
أن يكون المرء رقيقًا ليحصل على الحب
شفقةً، ولا شديدًا فيحصل عليه خوفًا،
كن أنت فقط يا صديقي، ستحصل ربما
على القليل منه نعم لكن ذلك الحب
سيكون صادقًا، ثق بي يا صديقي، أنا
أثق بأن الله يخبئ لنا دائمًا أجمل مما
نتمنى، ستشعر بذلك الأمر صدقتي، أنا
أثق بذلك، حين تجد الفتاة المناسبة فقط
أخبرني بذلك، اتفقنا؟



شكرني فارس حينها وودعني وفتح
الباب لكنه وقف حينها قليلاً، سألتُهُ إن
كان قد نسيَ أمراً لم يخبرني به وتذكره
الآن، قال لي حينها:

- هل يمكنني إخبارك بالفتاة التي رأيتهَا
مناسبة حتى إن كانَ هذا ربما يدمرُ علاقتنا؟

- يدمرُ علاقتنا! أخبرني يا فارس من تلك الفتاة؟

- نسمة، لقد أحببتها منذُ رأيتهَا لكنني
كنتُ أضعفُ من أن أخونَ صديقي لأكلمَ
أمانته من خلف ظهره، الحب لم يكن
بيدي رغمَ أنني لم أكلمها ولا أتعرفُ
عليها أكثرَ من ذلك لكنني أحببتها، إن
كان هذا الأمر سيؤثرُ على علاقتنا أريدكُ
أن تنسىَ معي أنني أخبرتكُ به رغم



معرفتي أن الوقت ليس مناسب لقول
ذلك لكنني لم أرد أن أخفي عليك شيء.

- سأحدثُ معها يا صديقي، إن وافقت
عليك سأخبرك حينها لأنني لن أجد
عديلاً ثقيلاً أفضل منك، إن لم توافق
حينها سننسى هذا معاً، حسناً؟

- حسناً يا أخي، عمت مساءً.

عدتُ للتفكير، التفكير الصامت قبل أن
أسمع صوتاً خافتاً من خلفي يأخذُ مني
تفكيري، نظرتُ فإذا بفتاةٍ صغيرةٍ تخبئ
هنا:

- مرحباً أيتها الصغيرة، ماذا تفعلين
هنا؟! أين والديك؟

- ماتوا جميعهم.



- تعالي إلى جانبي، اجلسي هنا يا صديقتي،
الألم سيزول، أنا آسف لأنهم ماتوا جميعهم
لكن هذه كانت إرادة الله، أنا متأكد أنهم الآن
في مكان أفضل بكثير عديني أن لا تفعلي
شيئاً سوى الدعاء لهم.

- أعدك بذلك.

كانت أقصرُ محادثةٍ أقومُ بها في رحلتي
هذه، كنتُ أظنُ ذلك قبل أن تخبرني بأنها
تريدُ سماعَ قصةٍ قبل النوم لذلك مازالت
مستيقظة منذ ليلة البارحة، قلتُ لها:

- سأخبرك بالقصة التي كانت تسردها
لي من ترعاني في صغري، كانت لطيفةً
جداً لكنها الآن في عالمٍ آخر.

- أنا أسمعك.



- حسنًا في زمانٍ ومكانٍ قديمٍ كان هنالك
حاكمًا يدعى بالحاكم العادل الذي عدل
في كل شيءٍ حكمَ به، وأعطى الجميع
حقه عدا نفسه لم يعطها حقها، دارت
الأيام وأصبح لدى هذا الحاكم زوجة
وأطفال، وأصبح اسمه العادل معروفًا في
بقاع الأرض كلها، جاءت ابنة هذا
الحاكم إليه يومًا من الأيام وسألته سؤالًا
أظهر كم أنه كان ظالمًا في حق نفسه،
سألته:

- أليس لنا جد أو جدة يا أبي؟ لم أراك
مرةً تتحدث عن ذلك.

احتار الحاكم بين قول نعم ليأتي سؤال
آخر يقتله أو قول لا ليكذب بها الحاكم



العادل لأول مرة في حياته قاتلاً نفسه
بها، فقال:

- اذهبي إلى غرفتك يا حبيبتى، سأجيبك
لاحقاً، أنا مشغول قليلاً الآن يا حبيبتى،
حسنًا؟ هيا إلى غرفتك.

هنا قام الحاكم باستنفار جميع حراسه
وجنوده ليشكل أسطولاً عدده خمسة
وعشرون ألف من الجنود وأمرهم أن
يبحثوا عن والدته في كل أنحاء العالم،
وأنه سيعطي جائزة كبيرة لمن يجدها،
وأراد أن ينشر هذا الخبر، لكن حين
سأله جنوده عن شكلها، خجل من
نفسه وقال:

- لا أعلم شيئاً، لا أعلم شيئاً سوى أنها
خرساء لكنني متأكد أنني سأعرفها حين



رؤيتها، أريد أن تحضروا كل امرأة لا
تستطيع الكلام إلى هنا، من عمر
الخمس إلى المئة.

ذهب الحاكم بعد ذلك ودخل إلى غرفته،
جلس على الأرض بجانب سريريه يبكي،
حاولت زوجته مواساته قليلاً، قال لها:

- ابتعدي، رجل مثلي نسي شكل والدته،
عمرها، لم يبحث عنها بعدما أصبح
حاكماً تهابه الجبال، لا أستحق أن
يواسيني أحد، بينما كنت أحافظ على
حقوق الجميع، نسيت حق من أنجبني،
ونسيت حقي معها، أنا ليس لي حق في
شيء من بعدها.

استمر البحث عن والد الحاكم مدة
تسعة وعشرون يوماً، أحضروا في تلك



المدة ما يقارب التسعة وعشرون ألفاً
من النساء اللاتي لا يستطعن الكلام،
حينها غضب الملك وقال:

- خذوهم جميعهم وأرجعوهم ولا تفتحوا
باب القصر لأحد حتى لو نمتُ لمدة
تسعة وعشرون يومًا بعدد الأيام التي
بحثتم بها عن والدتي.

مرض الحاكم حينها مرضاً شديداً وبقيَ
في فراشه تسعة وعشرون يومًا، لم يكن
أحد يتصور أنه حين قال ذلك، هذا ما
سيحدث، في كل يوم من تلك الأيام كانت
تأتي عجوزٌ خرساء وتطلبُ بلغة الإشارة
من الحراس الدخول للقصر، لم يفهموا
عليها لكن كان هنالك أحد الحرس الذي
يعرف هذه اللغة، أخبرهم ماذا تريد



لكنهم رفضوا أن يُدخلوها رغم أنها كانت أحياناً تتوسل وتجلس على ركبتيها من أجل الدخول لكن الحراس كانوا لا يستطيعون إعصاء أمر الحاكم، فأعطتهم حساء وقالت لهم بذات اللغة أن يدخلوه للملك، وقامت حينها بتذوق الحساء كي يعلموا أنه ليس مسمم، وأشارت لهم إلى الداخل، فهموا عليها وفعلوا حينها ما طلبته تلك العجوز، كانت تأتي في كل يوم تعطي لهم الحساء وتذهب حتى أتى اليوم التاسع والعشرون الذي استعاد فيه الملك عافيته وقوته، فإذا بأحد حراس الملك يدخل الحساء للداخل، قال له الحاكم:



- والله إن كنتُ قد تحسنتُ الآن فهذا بفضلِ
الله ثم هذا الحساء، أكرموا جميع الطباخين
في المطبخ وقلوا لهم أن اليوم إجازة لأنهم
كانوا يصنعون هذا الحساء لي.

فقال الحارس:

- لكن يا سيدي هذا الحساء ليس من
صنع من في المطبخ بل كانت تحضره
امرأة عجوز كل يوم، واليوم تركت لنا
مع الطبق رسالة لم أفهم عليها لأنها
كانت خرساء لكن بالتأكيد تريدني أن
أوصلها لك، هذا أيضاً ما أخبرني إياه
سالم الذي كان يفهم عليها بلغة الإشارة.

قال له الملك:

- ماذا! لغة الإشارة! خرساء! كم كان
عمرها؟ وكيف لم تخبروني حتى الآن؟



ردّ عليه الحارس:

- يا سيدي أنتَ أعطيتنا أمرًا بفعل ذلك،
ولم أخبرك أيضًا لأنك كنت مريضًا.

أمره الحاكم حينها قائلاً له:

- أعطني هذه الرسالة واخرج للخارج بسرعة.

كان مضمونُ هذه الرسالة كالتالي:

- "بنيّ، الآن أنا سعيدة للمرة الأولى
لأنني لا أستطيع الكلام، فلم يعد يجدي
الكلام نفعًا ولا أعرف ماذا أقول،
الحمد لله أنني عثرتُ على أحد الحراس
لديك الذين يعرفون لغة الإشارة حتى
أرسلُ لك هذه الرسالة، أنا يا بنيّ قطعتُ
الكثير من المسافات حتى أصلُ إلى هنا،
لم أتوقع أن لا أستطيع رؤيتك، توسلتُ



للحارس فقال لي أنك مريض فكتبت هذه
الرسالة وبدأت أعد لك الحساء كل يوم
وأعطيته للحارس الذي قال لي اليوم أنك
شفيت لأنني قررت أن أعطيك هذه
الرسالة في اليوم الذي ستشفى به
وأغادر أنا بهذا اليوم، لا تشتاق لي يا
بني لأنني سأموت بعد الآن، فالحياة
تنتهي حين ينتهي الأمل منها، وأنا إن
كان لي أمل في هذه الحياة، فقد كان
رؤيتك، والآن لماذا أعيش؟ في نهاية
كلامي يا بني أريدك أن تتببه على نفسك
وعلى عائلتك إن كانت لك عائلة ولا
تمرض مجددًا لأنني لم أعد موجودة كي
أعد لك الحساء، أحبك يا بني، دمت
بحفظ الله ورعايته، والدتك."



هنا بكى الملك لأول مرة في حياته حتى
سمع كل القصر صوت بكائه وصراخه،
أتت زوجته مسرعة وقالت له:

- ما بك؟

فقال: كنت ظالمٌ لنفسي والآن قتلتها يا
زوجتي قتلتها.

ثم نادى الملك جميع الحراس وقال لهم
أن يبحثوا عن تلك المرأة فوجدوها
جالسة عند أحد القبور القدامى، أخبروا
الحاكم بذلك فقرر الذهاب وحيداً إلى
هناك، وعند وصوله ورؤيته لوالدته
وقع على الأرض ثم زحف إلى قدميها
وبدا يقبلُ لها قدميها، فرفعتَه لها
وحضنته، وقالت بلغة الإشارة التي كان
يعرفها الحاكم:



- كيف لحاكمٍ عظيمٍ أن يزحفَ على الأرض؟ قف على قدميك.

ردَ عليها بحزنٍ:

- أنا إن كنتُ حاكماً للعالم، فإن تحت قدميك الجنة التي أريدُ أن أكون بها حتى ولو عبداً، كيف لي أن أضع عيني في عينيك وأنا مستلقٍ في فراشي بين حراسي، وأنت هنا بين القبور، كيف أسامحُ نفسي يا أمي؟

أجابته والدته:

- ستسامحُ نفسك لأنني سامحتك، ولأنني أعرفُ لو أنك تعلمُ أنني على الباب لفتحتهُ ليّ بنفسك يا بني.



أخبرها الحاكم بأن هذا الباب لن يغلق
بعد اليوم يا أمي، لن يغلق، وأعدك أنني
سأنام تسعةً وعشرون يومًا بين القبور
ثم أنظر إلى عينيك بعدها، في ذلك الوقت
نام الملكُ فعلاً بين القبور حتى آتى اليوم
الثلاثون لكي يكون نهاية ذلك الرقم الذي
هو تسعةً وعشرون، ذهب مسرعاً
لقصره واحتضن والدته وعانقها
وعرفها بأولاده، ووقف أمام ابنته
الصغيرة حينها وقال لها:

- نعم يا ابنتي لكِ جدةٌ وها هي.

منذ ذلك اليوم لم يغلق باب الملك لأحد،
وكانت كل تبرعات الملك تحت عنوان
"من أجل عينيك يا أمي".



هنا انتهت القصة، كنتُ أرويها بفمي وعينيّ ثم نظرتُ للفتاة فإذا بها نائمة، غطيتهَا وجلسْتُ بجانبها قليلاً أفكرُ بالوضعِ الراهن ثم تطرقُ علياء الباب، طلبتُ منها أن تدخل:

- مساءً الخير، لم تنم! لقد عملنا كثيراً اليوم ولا أعلم ما الذي ينتظرنا في الغد لذلك يجبُ عليك أن تُريحَ نفسك قليلاً ثم من هذه الفتاة التي بجوارك؟

- مساءً الخير، لم أعتد النومَ كثيراً، أعلم لكن لا أستطيع أن أريحَ نفسي في النوم، حتى النومُ يتعبُني في هذه الحرب، قل لي ما الذي أتى بك إليّ في هذا الوقت؟ ولماذا لم تنامي أنتِ أيضاً قبل أن تتصحيني بالنوم؟ هذه الفتاة وجدتها



نائمةً هنا ولم أستطع إيقاظها، قلبي لم
يسمح لي بفعل ذلك.

- حسناً، فهمتُ عليك يا طيب القلب،
نعم، النوم لم يعد ينفَعُ معي أيضاً، لقد
رأيتك اليوم منهاراً لكنني لم أستطع
سؤالك، فقد كان الموتُ ينادينا من
الناحية الأخرى لذلك لم أنم وجئتُ
لأسألك الآن.

- من يراك تتصحيني للنوم لا يُصدقُ
أنك لا تتأمين، يجبُ أن نعتادَ النوم مع
الموتِ يا عليا، أنا بخير لا تشغلي
تفكيرك كثيراً بذلك، إنها بضعة لحظاتٍ
فقط تأتي في أوقاتٍ لا نعتادُ عليها فيها،
هذا كل ما في الأمر فقط.



- هل سنعتادُ على ذلك يا أحمد؟ هل اعتدت أنت؟ لا أعتقدُ ذلك، أجبني فقط عن عدد المواضيع التي تُشغلنا في اليوم عدا موضوعُ التفكيرِ بالحياةِ أو الموتِ.

- هل تعلمينَ يا عليا عندما قررتُ المجيءَ إلى هنا كنتُ أرى نهايةَ هذا الأمر من البداية لكنني استمررتُ لأرى نتيجةَ معرفتي تلكَ لذلك الآن لا أعلم إن كنا سنعتادُ على ذلك يا عليا لكن سنحاولُ مثلما نفعلُ كل يوم، وبالنسبةِ للتفكير أنا لا أفكرُ إلا بليالٍ، وبانتهاءِ هذا الموتِ، نعم هذا موضوعُ الحياةِ والموتِ فقط.



- هل تحب ليالٍ لدرجةٍ أن تضع اسمها
مكان الحياة؟ إن كان كذلك فاعذرنى إن
حسدتها قليلاً حتى وأنا لا أعرفها.

- أتعلمين عندما أفكرُ بليالٍ أشعرُ كأنه لم
يحدث شيءٌ كأنني في غرفتنا أنتظرُ ليالٍ
لتأتي كي نشاهد فلماً معاً بعد أن تكون
قد أنامت طفلنا ثم تأتي وتضربني
وتحزن لأنني كنتُ أقدمُ الفلمَ إلى
منتصفه وأمثلُ لها بأنني سبقتها
بمشاهدته وكنتُ مندمجٌ به، فأحضنها
حينها وأقولُ لها أنني أمزح فتضحكُ
حينها مخبأةً وجهها عني بين ذراعيها،
فأمسكُ بها حتى تنظرَ لي فأقولُ لها أنني
فعلتُ كل هذا من أجل هذه الابتسامة فلا
تُخبئها عني، أحبك يا قمري الوحيد،



الطمأنينة تشمل كل ذلك التفكير، حينها فقط كنت أشعر بالحياة.

- لقد أبكيتني يا أحمد، أدعو الله فقط أن يجمعكمما بخير قريبًا ويجمع كل شخص بمن يحب، وأن يرسل لي محبًا مثلك يتذكرني في لحظات يكون الموت آخذًا فيها جميع ثأيا ذاكرتنا.

- الدعاء هو الأمل في هذه الحياة، هو الشعور بطلب شيء لا يتحقق إلا بإرادة الله، والله فقط هو من يعيننا على فعل ذلك ليحقق لنا ما طلبناه بعد صبرنا، ابقني عليه دومًا يا عليا، والله كريم يعطينا أجمل مما نتمنى بعد الصبر.

- حسنًا، سأضع نصيحتك هذه في دفتر ملاحظاتي لكي أنام كل يوم وأنا أدعو لله



لكن بالرغم من بكائي فقد أضحكني ما
كنت تفعله بليال كي ترى ابتسامتها،
كانت فكرة لا بأس بها حين تفعلها مزحاً
فقط.

- حسناً من حقك أن تضحكين وتبكين
على ذلك الأمر يا عليا، فهو الأمر الذي
يفعل بي ذلك كل يوم يا آنسة علياء.

ابتسمت علياء في ذلك الوقت فقلت لها:

- أول مرة أراك تبسمين فيها هكذا منذ
أن أتيت إلى هنا ثم أنني كنت فقط قد
رأيت حلمًا سيئًا جعلني أستيقظ هكذا،
هيا اذهبي للنوم ولا تشغلين بالك بي،
فأنا بخير.



علياء: لقد رأيتني أبتسم، فأنا لا أخفي
شيئاً جميلاً مثلك، وحسناً أتمنى أن
تكونَ بخير فأنا أشكُ في أنك كذلك،
عمت مساءً يا أحمد.

- علياء أنا أبتسم كثيراً في الواقع لكنني فقط
تركتُ ابتسامتي في منزلي وخرجتُ.

- حسناً أتمنى أن أراك تبسم قريباً لأنني
سأحبُّ أن أراك كذلك، عمت مساءً.

ثم ذهبت علياء بعد أن غارلتني ونقدتني
بنفس الكلمة هكذا شعرت، من حقها أن
تظن أنني لست بخير، أنا إن كنتُ فاشلاً
في شيء فذلك الشيء هو الكذب، هكذا
انتهى يومي الذي كتبتُ في نهايته أيضاً
رسالةً لحبيبتني قائلاً فيها:



- "ليال يا ضحكتي، لن أمل من قول ذلك حتى تنتهي هذه المأساة حينها سأرى ما أصفك به، اشتقتُ لك مرةً واحدة تتالت في مراحل كثيرة تطورت على مر كل هذا الوقت، لقد عشتُ شعورًا وصفتهُ بنظير الحياة مختلفًا عن الموت لكنه في نفس التشابه من الواقع، لا يهمني ذلك لأنني لازلتُ أملك الحياة داخلي حين أودعتك هناك منذُ تعارفنا، لم أسبق عدوي والذي هو الوقت، لازلتُ أقاتل كل ثانية منه على أمل أن ينتهي عن السير في فراقك ويبدأ مجددًا وأنتِ هنا، سبق وأن قلتُ كثيرًا من الكلام الذي لن أعيد منه سوى أنني اشتقتُ لك وهذه الرسائل حين أكتبها في المساء أتذكرُ كيف كنتُ



كل ليلة أروي لك قصة يومي التي كنت
تتأمين في منتصفها دائماً، حدثت معي
مثل ذلك اليوم حين رويت قصة لفتاة
صغيرة، هذه الرسائل يا حبيبتى قصص
في ورقات شبيهة بتلك الأحاديث الليلة
لكنني متأكد أنك لن تنامي في هذه
القصص، وفي هذا الموضوع سأروي
لك عن قصة رأيتها في نومي رأيت أنني
كنت أنظر للخارج فإذا بمجيء رجل
مسلح يصرخ ويهددنا بالقتل، اقتربت
منه وسألته عن طلبه الذي استغربت
منه، كان يريد ماءً وطعاماً، أخبرته إنه
سيحصل عليهما سواء كان مسلحاً أم لا
لأننا هنا من أجل مساعدتهم، أخفض
سلاحه حينها وقال حسناً أعطني، وبعد



تلبيةً طلبه، طلبتُ أنا منه قصته التي
كانت أقصى مما توقعت حيثُ قال لي: أنا
رجلٌ يعملُ في مجالِ نجارةِ الخشب،
ومعي شهادةٌ في المحاماة لكنني لم
أتوفق في العملِ بها لكن لا بأس كانت
مهنتي تطعنني خبزًا أنا وعائلي التي
هي عبارةٌ عن زوجتي وطفلين وابنتي،
لم نكن نملكُ قصرًا لكنني كنتُ أرى
منزلي كذلك، أدخلُ إليه ملغًا وأخرجُ منه
كذلك، رضيتُ دومًا بما يقسمه الله لي
لأنني أعلمُ أن ما يأتي منه هو الخير
دائمًا وأنا أَرْضَى بذلك حتى جاءت
اللحظة التي انتهت بها كل شيء،
سبحانَ الله والحمدُ له لا اعتراضَ على
حكمه، ابتلاني بما لا طاقة لي به، دخلتُ



إلى منزلي بلحظةٍ لم أكن بها ملگًا، كنتُ
ذلك الرجل الفقير الذي ليس بيده أن
يحمي عائلته من شيء، لم نكن في
حربٍ حتى يحدثُ هذا لذلك فاجئني وجودُ
الخطر الكبير هذا في بلدي الآمنة،
وجدتُ رجلين في منزلي يحملون سلاحًا
ويربطون عائلتي في منتصفِ الغرفة،
هجم أحدهم بسرعةٍ وضربني حتى
أفقدني وعيي وحين استيقظتُ وجدتهم
جالسون يشاهدون التلفاز، كانت أحدُ
أسلحتهم قربي وأنا أعرفُ استخدام هذا
السلاح من أيام العسكرية، فتناولتُ ذلك
السلاح وأخبرتهم أن يرفعوا أيديهم،
سألتهم عن عائلتي، كلموني حينها بلغةٍ
لم أفهمها، صرختُ فيهم بأن يكلمني



أحدهم بلغة أفهمها لكن لم يفعلوا ذلك
وحاول أحدهم إمساك سلاحه، فأطلقت
حينها النار عليهما حتى فرغ السلاح،
رمى السلاح وأنا لا أعلم ما الذي فعلته
حاولت إمساك نفسي من أجل البحث عن
عائتي التي لم أجد منها سوى أطفالي
الاثنين مرميان في الحمام تغمرهم
دمائهم، لماذا قتلوا أطفالي؟ ما الذي
سيفعله طفلان بعمرهما لهم، بكيت
وصرخت قريبهم وأنا أعانقهم مدة من
الوقت ثم نهضت للبحث أيضاً عن
زوجتي وابنتي فلم أجدهما في المنزل،
حينها وضعت أطفالي في حفرة حفرتها
في حديقة المنزل، لم أعلم كيف لازلت
واقفاً بعد الذي حدث، حزن يغمرني



لدرجة أن أقع في سكتة قلبية لكنني كنت
أصبر وأقاوم تعبني لأنني يجب أن أعثر
على ابنتي وزوجتي، هذا السلاح الذي
معي كان لأحد الرجلين اللذان كانا في
منزلي وقتلا طفلي، أخذته وخرجت ومنذ
ذلك الوقت حتى الآن، أبحث في كل
مكان، لم أترك مكاناً لم أبحث فيه حتى
وصلت إلى هنا على هذه الحالة التي
رأيتني بها، ضائعاً في شخصية أخرى
حتى حدثتني أنت بلغتنا، بطيئتنا
وعطفنا جعلتني حينها أعود إلى ذلك
العجوز الذي ليس بيده حيلة سوى
البكاء على ما حدث معه، قل لي أرجوك
هل يستحق المرء أن يعيش كل هذا؟،
أغلب الرد الذي أتى مني حينها عليه هو



المواساة له أو محاولة ذلك، حزنتُ عليه
كثيرًا كأن الذي حدث أحنني كحزنه
فأوقني بما هو به، لا أعلم إن كان أمرًا
طبيعيًا أن أشعر به هكذا لكنني أعلم أننا
أبناء وطن واحد، وهذا الوطن هو جسد
نحن أعضائه، ودمه، نشعر بما يشعر به
بعضنا، حين انتهى حديثنا سألتُه عن
اسمه من باب التعرف إليه وتغيير
حديثنا قليلًا، فكان اسمه عبد الله الأسعد،
فاستغربتُ من كنيته التي كانت قد مرت
على أذني في ذلك اليوم هكذا تذكرت،
نهضتُ حينها ناديتُ علياء وسألتها
لأتأكد إن كان لدينا مريض من عائلة
الأسعد، فأجابتي بأجل، لقد جاءتنا اليوم
مريضةٌ باسم فاطمة الأسعد، ذهبتُ



حينها مسرعاً إليه وأخبرته بأن يتبعني،
وحين رأى ابنته ركض إليها وعانقها
وقبلها من رأسها، حينها عادت ضحكة
الفتاة لترتسم على وجنتيها ناطقةً بكلمة
أبي، ما أجمل اللقاء يا ليالٍ، أبكتني تلك
اللحظة التاريخية التي قلتُ فيها بيني
وبين نفسي متى؟ متى سألقاك يا
حبيبتي؟ اكتفيتُ، تعبْتُ، وملتُ من
الفراق الذي لا أعلم حتى الآن متى
سينتهي، لا أقصدُ أنك سبباً في حزني يا
حبيبتي، فإن كان لك دوراً في شيء،
فأنت أُملي وسرُّ قوتي وتحملي كل هذا
الألم والموت، هل تعلمين يا ليالٍ؟ كان
أكثرُ شيءٍ يحزنني هو عند مشاهدتي
برنامج الحيوانات المفترسة الذي كان



يعرضُ على التلفاز، كان يُبكيّني من
الداخل مشهدُ الحيوانات الضعيفة وهي
تُؤكلُ من الحيوانات الأقوى منها، مظهرُ
جثتها الممزقة يجعلني أطفئ التلفاز قبل
أن تنهار دموعي، رغم أنه كان قانون
الطبيعة لكنه كان يشعّرنِي بالحزن لكن
رغم كل هذا لم أتوقع أن أرى ذلك
القانون يتجسّد هنا في بلدي، بين من لم
يشملهم هذا القانون لكنهم مارسوا كل
حرفٍ منه، القانون الوحيد الذي لم
يخالفوه، حينها أصبحتُ أنظرُ إلى جثث
الحيوانات من ذات الجانب لكنني لا أرى
سوى البشر منهم الفريسة ومنهم
المفترس، حبيبتِي يا شمعةً يأسِي
المظلم، يا خيمةَ حلمي النائم الذي أنتظرُ



استيقاظه بين ذراعيك، أحببت أن تعلمي
فقط أنني احتفظت لك بصورة أخذتها لك
وأنت نائمة قبل ذهابي عنك لا أعلم متى
سأخبرك بهذا، سامحيني على ذلك، رغم
أن هاتفي راح ضحية انفجار حدث في
أول يوم لي هنا لكن صورتك تلك بين
خلايا ذاكرتي لم تختفي من رأسي، أحبك
يا قمري الوحيد، سأكون في سماءك
يومًا ما، انتبهي على ذاتك حتى ذلك
الحين، طبيبك.

ذهبت للنوم بعدها لأستيقظ على قصة جديدة.

٢٥ آذار ٢٠٠٣ "الطريق الجديد"

في صباح لم يكن عادي، كان قد أتى
بحركة جديدة تجعلنا ننقل فيه إلى
مستوصف قريب من تلك المنطقة



لنمارس مهنتنا في مكانٍ نعرفُ بهِ ذلك
ونبدأُ بهِ بطريقٍ جديدٍ، كان ذلك الانتقال
يومنه بعضُ الجنودِ العراقيين، وعندَ
وصولنا إلى هناك وجدتُ عديد من
المرضى وثلاثة أطباءٍ والكثير من
الناس منهم جرحى حرب ومنهم جرحى
قلب بسبب الحرب، هنا يمكنني البداية
في تفكيرٍ آخر، يبشرُ قلبي الحزين، ذلك
التفكير كان يتجلاه عنوانُ العودة لليال،
تعرفتُ على الأطباءِ هناك وأبدوا
جميعهم احترامهم لي وقالوا لي بأنهم
تحتَ أمري جميعهم، لم أرغب بذلك،
أخبرتُهم أننا جميعنا هنا تحتَ أمرِ الله ثم
هولاء الناس الذين يحتاجوننا، بدأنا
حينها بالعمل، وهكذا مضت الأيام بذلك



الشكلِ حتى مضيتُ خمسة سنينٍ في
بعدي عن ليالٍ، نعم هم خمسة أيام فقط
لكنهم كانوا في بعدي عن ليالٍ ليسوا
كذلك، في هذا اليوم جلستُ أنا وفارس
وعلياء والقليلُ من الناس هناك، وقررنا
الخروجَ من هذه المدينة ليهربَ الجميعُ
من الموتِ هنا ولكي أعودُ أنا للحياة من
جديد بين يديّ ليالٍ، كنتُ أريدُ العودةَ
بمفردي أولاً مع قليلٍ من الناس
كمحاولةٍ بدائيةٍ للخروج لكن علياء،
فارس ونسمة أرادوا القدومَ معي،
وافقتُ على الجميع إلا علياء التي ظننتُ
أن بقائها هنا أفضل لكي تساعد بقية
الأطباء الذي أعطاني وجودهم أيضاً
حافزاً لكي أرحل وأطمئن أن هنالك من



يساعد الناس الذين هنا لكن علياء أبت
ذلك وقررت المجيء، هممنا حينها
بالرحيل وخرجنا إلى الطريق بإحدى
السيارات العسكرية، نحن والكثير من
الناس التي أرادت الخروج من تلك
الصحراء القاحلة (الحرب) التي كان
يسودها الجثث والرصاص بدلاً من
الرمل والكثبان ثم اعترض طريقنا الذي
اخترناه مجموعة من القتلة التي بدأت
تطلق النار علينا من غير رحمة،
فاضطررنا للوقوف في مكان كان مليء
بصوت الرصاص والانفجارات وصراخ
الناس مع شهقات من الدموع، بعضها
من الموت، ثم قال فارس بكل صوت
مؤلم وغاضب:



- لَيْتَ سَلاحِي مَعِي لَكِي أَجْعَلْ هَؤُلَاءِ
الَّذِينَ يَظْلِقُونَ بِدُونِ رَحْمَةٍ أَمْواتًا وَأَحْمِي
أُولَئِكَ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ ظُلْمًا.

فَقالتَ عَلياءُ:

- لَيْتَنِي أَسْتَطِيعُ إِسْكَاتَ صَوْتِ الأَلمِ، ذاكَ
الَّذِي فِي كُلِّ رِصاصَةٍ يَأْكُلُ جِزءًا كَثيرًا
مِن قَلْبِي.

فَقُلْتُ لَهُم حِينها:

- فَارِس، عَلياءُ، أَقْدِرُ عَاطَفتَكم لَكِننا
داخِلَ حَربٍ وَلا نَعْلَمُ مَن يَنجُو مَناها، لا
أَحدٌ يَعلَمُ سِوى اللَّهِ لَذلكَ لا تَخافُوا لِأَنَّ كُلَّ
شَئٍ مَن عِندَ اللَّهِ، وَاللَّهُ رَحِيمٌ بِالْعِبادِ،
لَذلكَ كَفاكم أَلَمًا، سَيمُرُ كُلُّ هَذا بِإِذنِ اللَّهِ
وَسَيَزُولُ الأَلمُ.



فارس: يجب علينا العودة لن نستطيع أن
نكمل هكذا، ربما إن أكملنا هذا الطريق
سنخسر إحدانا أو كلنا.

علياء: هل نترك الناس بمفردهم يا
فارس! لم أتوقع هذا الكلام منك أنت
تحديدًا، برفقتنا أناس خرجوا ولم يفكروا
بالعودة لذلك إن قررنا العودة الآن أخاف
من أن يخرج معظمهم فيفضل الموت
على العودة إلى تلك الحياة هناك.

قلت حينها بعين تدمع وقلب يبكي:

- علياء أنا أعرف فارس، ومتأكد من أن
قوله كان ناتجًا من خوفه علينا لا من
الموت لكنك أيضًا معك حق لذلك يجب
أن ننقسم هنا، فارس خذ الجميع واذهب
من الطريق الآخر بينما أركب السيارة



أنا وأحاولُ أن أجعلهم يلحقوني، بالتأكيد
عندما يروا سيارةً عسكريةً هنا سيجنُ
جنونهم ويتبعوني كلهم، إن لم أستطع
العودة، خذ هذه الرسائل أعطها لحبيبتني
وقل لها أنني أحبها، وهي في أمانتك إن
حدث لي شيء.

علياء: وأنا سوف أذهب معك يا أحمد
لن أتركك وحدك مهما قلت، ويجب أن
يروا أن هناك أكثر من شخصٍ داخل هذه
السيارة ليأتوا جميعهم هكذا أعتقد أو
ربما صنعناها حجةً لكي لا تعاندني
وتدعني أذهبُ معك، لذلك إن كنت
ستعاندني، لا تفعل.

فارس: ماذا تتكلمون؟ هل نحن في فلمٍ
أجنبي؟ وكيف أترككم هكذا للموت؟ إن



كان يجبُ على أحدٍ فعلُ هذا اليوم فهو
أنا، الجميع لهُ أحدًا ينتظره لكن أنا ليس
لي أحد، دعني أفعلُ ذلك يا أحمد.

رددتُ على فارس:

- لا يا فارس، إني أثقُ بك في أن تأخذَ
تلكَ الناس خارجَ هذه المدينة، وأنت
تعرفُ الطرقات هنا أكثرَ مني، وأخافُ
من أن نتبادلَ المهام، فيحدثُ لكُ شيء
وأضيعُ أنا بالناس حتى وإن كان بعضهم
يعرفُ قليلاً بالطريق لكن لا أظنُ أن
هنالكَ أحدٌ مثلكَ في هذا الأمر لذا هيا أنا
أعطيكَ ما أراه مناسبًا، وأنا موجودٌ هنا
يا أخي، لا تقل ليس لي أحد مجدداً، هيا
اذهب وخذ نسمة معك هي في أمانتك يا
أخي، أخبرها أيضاً أنني ذهبتُ لإحضار



شيئاً مهماً جداً نسيته قبل أن نرحل
وأنتي سألاقيكم في الطرف الآخر، لا
تخبرها بالحقيقة لأنها لن تذهب معك
حينها، حسناً يا صديقي؟ هيا أعطني
سترتك العسكرية واذهب.

في تلك اللحظة أخذنا السيارة أنا وعلياء
التي لم أستطع أن أمنع وجودها معي
وذهبتنا، نجح فارس بالابتعاد في تلك
اللحظة لكن قبل ابتعاده كثيراً سمع
صوت انفجار قوي، قبل رحيله كنت قد
قلت له أن يبعد الناس مهما حدث فلم
يستطع العودة، ذهب وأخرجهم ثم عاد
بعد ذلك ليجد أن سيارتنا التي ركبنا بها
أنا وعلياء قد تدمرت، ومن الصعب جداً
النجاة من ذلك الدمار الذي حدث لها،



بكى فارس وعلم أنني قد مُت حينها،
جلس يبكي وقال:

- ماتَ طبيبكِ يا بلدي، ماتَ صديقي
الوحيد، لماذا يا عراق؟ لماذا يا الله؟ لقد
كان يقولُ أنه بجاني، من بجاني الآن؟
من؟ أنا آسف يا أخي أنني عدت لكنني
سأحققُ وصيتكِ يا أخي أعدكِ بذلك،
لماذا فعلتَ هذا بي يا صديق طفولتي؟
لماذا؟

كنتُ قد أعطيتُ فارس مهمةً أخرى بعد
إيصالِ الناس وهي نسمة، ليالٍ وإيصالُ
رسائلي لها، وفي آخر رسالةٍ قد كتبتها
لليالٍ قبل ساعاتٍ من الحادثة في
منتصفِ الألم، كنتُ قد اسميتها رسالةً
اليومِ الأخير، كنتُ أقصدُ بها إما اليوم



الأخير لي هنا، أو الأخير لي في هذه
الدنيا، تلك الرسالة كان مضمونها:

- "ليال، حبيبتني، أكتبُ لكِ والتعبُ يأكلُ
أطرافَ عيني، وصوتُ الرصاصِ يسرقُ
السمعَ من أذني، حبيبتني ماذا أقول،
عندما كنتُ أراكِ، كنتُ أرمي على الشعر
شعرا ليتكلمَ الشعرُ عنكِ، أنتِ التي
برؤيتها كان قلبي يرتوي فكيف لا يظمأُ
القلبُ وأنتِ عنه غائبة، أحببتكِ حبًا
انفرديًا جمعتُ بهِ كل الحبِ لكِ، لم يكن
ولن يكون هنالك نسخةً منكِ لأنكِ متفردةٌ
بنسختكِ الأصلية كسلطانةٍ تفردت في
عرشها، كنتُ دائمًا أسرقُ منكِ نسخةً
أصليةً أبقيتها في داخلي كي لا يفرغَ
داخلي من الحياة، أكتبُ لكِ رسالة اليوم



الأخير، اليوم الأخير فقط لي في هذه
الدنيا لكنه اليوم الأول لي في الموت،
سأنتظر هنا يومك الأخير في الدنيا التي
ذهبت منها ليكون يومنا الأول في الحياة
التي سنجتمع فيها، الموت هو أن أكون
أنا في يوم يا حبيبتي، وأنت في يوم آخر
يا أيامي كلها، يا من أصبح التعب
براحتها راحتي والراحة في تعبها أمست
تعبتي، قد شعرت بأن تلك الأيام التي
عشتها معك كأنها الأيام التي عشتها
فقط، أما باقي الأيام كانت حلمًا أستيقظ
منه عندما أراك، يا وردة صباحي عرفت
وحدتي في غيابك، فالوحدة كانت تؤنس
وحشتي، حبيبتي تركت مملكة حُبنا على
عائقك، أمانة تريح روحًا ستبقى معك



وسأقول لك من داخل قلبي كل الأرواح
تصعدُ عند مماتها لكن روعي أصعدتني
وبك بقيت، وما صمتَ قلبي عند توقفه
إلا عن حياتي التي فُنيّت، إنها ليست
مجرد كلماتٍ تخرجُ مني لك، تعرفين أن
الكلام لن يكتمل مهما تحدثت عنك لذلك
اخترتك لكلماتي، فاكتمل المعنى حينها
وتم الاتفاقُ على صحته بين قلبي
وعقلي، حينها وجدتُك هناك في الداخل
في جميع حلقاتِ مسلسلتي، سنلتقي في
الجزء الثاني منه يا حبيبتي، ذلك الجزء
لن ينتهي أبدًا، ونحن كذلك، كنْتُ
مبعثرًا، أشلائي ضائعة، بين البارحة
أنتِ هنا واليوم دخلتُ (لست) لتصبح
لستِ هنا، ما عدتُ أرى شيئًا جميلًا، لم



أعد أريدُ عينيّ من بعدِ رحيلي عنكِ،
أوراقِي كلها تساقطت في فصلي الشتائيّ
لم تنتظر قدومَ الخريف، هكذا أنتِ ذهبتِ
قبل موعديكِ يا حبيبتِي، ويا زهرةَ فصلِ
الربيع، لم أكن أعلم إن كان يوجدُ خريفٌ
في وجودكِ لكن الخريف الفصلُ الذي لم
يفارقتي في غيابكِ، ربما إن التقينا
ستزهرُ الحياة من جديد لكن الحياة على
حسبِ الظروف التي أبقتني فيها، فأنا
أظنُّ أنها أحببت الخريف، بقايا الذاكرة لا
تتركُ لكنها تنكرُ البقايا الأخرى التي
لستِ بها، فأفقدُ ذاكرتي من جديد لكي
أُبقي نفسي في ذلك اليوم فقط الذي أنتِ
موجودةٌ فيه ولم ترحلي بعد، وفي هذا
اليوم أُحبكِ من جديد، حبيبتِي، بعد



ساعاتٍ من الآن سأتي إليك، لا أعلم إن كنتُ سأصلُ لك أم لا لكن إن حدثَ لي شيئاً في هذا الوقت واستطعتِ لاحقاً أن تقرئين رسائلي فاعلمي أنني أُحبك كثيراً بكل قلبي وكل كُلي أُحبك، سأنتظرُ حتى وإن كنتُ في الطرف الآخر من الحياة أن نجتمع، هذا أول طلباتي في كل لحظة أكون فيها أدعو ربي، أتمنى أن تكوني بخير، أن تعتني بنفسك جيداً، أن لا تبكي في غيابي، وأن مكانتك في داخلي ستبقى شامخةً مهما حدث حتى وإن مث هنا ستبقين من تُبقي داخلي حي، فإن لم أدخل بعد قليل من الآن لمنزلنا لا تحزني لأنني ربما سأتأخر قليلاً لذلك لا تغضبي، لازلْتُ أذكرُ يا حبيبتي كيف كنتِ تغضبين



مني كل يومٍ بسببِ تأخري عنكِ وتقولي
لي أنكِ كنتِ تنتظريني وندمتِ على ذلكِ
لأنني لا أستحقُ هذا منكِ، فتحزني بعدها
لأنكِ قلتِ هذا، لأنكِ تعلمينَ أنني طيب
وتقدرينَ هذا الأمرَ رغمِ تقصيري
اتجاهكِ فأعانقكِ وأقولُ لكِ لم أحزن منكِ
بل حزنتُ لأنني تسببتُ في مضايقتكِ
بسببِ عملي الليليِّ والصباحيِّ وعدمِ
تفرغي في أغلبِ الأحيانِ لكِ ولابنتنا
وتقصيري، فتقولين لي أحبكِ من جديد
ليس مهماً تأخركِ يا حبيبي، المهم فقط
أن تأتي دوماً إلي، وها قد أتيت،
سامحيني يا حبيبتي إن لم آتي اليوم
لكنني أنتظرُ مجيئكِ إن رحلتُ، وأعدكِ
أن آتي إن بقيتُ، حبيبتي لو كنتُ أملكُ



قُدرةً لتغييرِ الواقع، لاخترتُ واقعًا أفضل
من ذلك لي ولكِ، لكنني لا أملكُ القوة إلا
لكي أقولَ لكِ أنني أُحبكِ وسأُحبكِ دوما
يا ملاكي، كتبتُ لكِ هذه الكلمات،
القصيرة كتابةً، الكبيرة معنًا ووصفًا،
حبيبتِي، حبيبتِي أيتها الأميرة، سأقفزُ
فوقَ سحاباتِ المطرِ تلك وأتي بقطرةٍ
منكِ ترويني، وأنزلُ منها إلى أمواجِ
البحرِ لتأخذني موجةً وترميني، أنزلُ إلى
أعماقِ البحرِ وأصيدُ قصيدتي من هناك،
وبعد بحثي داخلَ البحرِ أخرجُ من عينيكِ
بلؤلؤةٍ لم أجدها هنا فأصنعُ منها خاتمًا
أضعهُ بين سنانبكِ الصغيرة، وأعودُ
للسماءِ لسرقةِ نجمتين أعلقهما في
أذنيكِ الجميلة، حبيبتِي الأميرة، سأزورُ



حدائق بابل، واقطف لك زهرة من بين
كل القبائل ثم سأعود إلى زيارتي
الأخيرة وتحت الشتاء سأصنع لك غيمة،
وخلف نوافذ منزلك سأودع لك قبلة
ليست صغيرة ولا كبيرة، سأصنع رمحي
من رموش عينيك وأطعن به كل من
يقرب من الأميرة، ثم سأطهو لك غذاء
حبنا في ليلة لن ننساها مهما عشنا،
وستكون بداية في حياتنا التي ستكون
بالذكر جديرة، على متن سفينة سأحلق
بها فوق السحاب لأصل إلى جزيرة
مهجورة وبعيدة، ونكون فقط أنا وأنت
سكان تلك الجزيرة، حبيبتى أيتها
الأميرة، حبيبك وطبيبك: أحمد العربي."



انتهت رسالتي لكن تفكيري لم ينتهي،
هكذا هي الحياة تأتينا بأجمل حب في
العالم، وتُهدينا ما يوقف جراحنا عن
النزف وما يدفعُ بردنا لكن بشكل مؤقت،
ثانية واحدة تكفي لحل معادلتها الجميلة
وإعطائنا جوابًا كسرًا يجعل أحدنا في
الأعلى والآخر في الأسفل ثم تطرح منا
جميع تلك الأيام الجميلة، وتضرب في
وجوهنا الغربة عن نحب، وتجعلنا
نتمنى شيئًا واحدًا فقط وهو رؤية إشارة
الجمع الغائبة من قاموس الحياة، تلك
الثانية الواحدة التي تُعطينا مانعًا للتخثر
في وسط ألف جرح بنا، حاولت كثيرًا
تخطي تلك الصفحات للصعود من جديد،
والبحث عن طريق آخر غير الحياة،



فوجدتُ أن الخلافَ هو ليس الذهابُ في
طريقٍ آخر بل أن الوصول في كل
الطرقات إلى نهاياتٍ ليست حبيبتني بها
هو الأمرُ الذي يحذف إشارة الجمع من
قاموس الحياة، لا بد أن الحياة تعاقبني
الآن لأنني نسيثها وعشتُ بداخل ليالٍ،
الحياة أيضًا أنثى تغارُ بسرعة فتُعطينا
البعد كوجبةٍ مستحبةٍ لنا لكنني كنتُ لا
أحبُّ تلك الأكلة، مكوناتها كانت جميعها
خاليةً من وجود ليالٍ، واجهتُ الحياة
وحاولتُ أن أبعدَها عني وعن حبيبتني
ليالٍ لكنها كانت الوسيط الذي يفرقُ
القلب عن بيته لتسقطني في بعض
اللحظات التي كنتُ بها بائسًا حزينًا،
ضائعًا في محطات الألم التي افتتحت



داخلي أبوابها، لم أكن أعلم أن الحياة
تستطيع قتلي وأنا حي، كانت تعلم كيف
تضربني من غير قتلي، استبقت الأحداث
كثيراً وحاولت أن أضربها قبلها لكنني
نسيت أنها كانت شيئاً لا أستطيع أن
أنهيه بمجرد الوقوف والمحاولة من
جديد، فكان لابد من أجل مواجهة الحياة،
مواجهة الموت أولاً، تلك الحياة كانت
القاتل المتسلسل لي، لم تحب ما أفعله،
مشاهدتها للخير كان ثقيلاً على أعينها،
وهذا ما كان سبباً يجعلها تفعل كل ما
بوسعها للتأكد من وقوعي مجدداً، قلتُ
لها:

- اهديني قليلاً على قلبي أيتها الحياة،
أنسيت أنني أساعدُ في بقائك؟ هل هذه



مكافئتي؟ يجب أن أشكرك الآن إذا لأنك
كنت مثل الجميع في الرد على ما قدمه
لهم، شكرًا لك أيتها الحياة.

في تلك الأثناء كانت جميع أجزائي ميتة
إلا قلبي، مستلقيًا نائمًا في عالم الحرب
هذا، مستيقظًا طائرًا في السماء، لم يكن
موعدُ فَنجانِ القهوةِ المرة الذي ستشربه
الناس بعد موتي قد آتى، لم تنتهي مني
الحياة، حينها شعرتُ وكأن الموت
والحياة كلاهما يتصارعان عليّ لكن في
هذه الجولة فازت الحياة من جديد، لم
أعلم أن الموت حينها لم يرضى عن تلك
النتيجة التي جعلت في داخله دافعًا لينتقم
مني في الوقت القادم، فالموت هو
فَنجانُ مكسور نشرٍ من جميع حوافه



السليمة حتى نصل إلى مكان الكسر
لنشرب آخر رشفة منه، ليست الرشفة
التي تنهيه بل كانت التي تتهينا نحن،
استيقظت بعد غفوة دامت عدة أسابيع
في غرفة قديمة مع إصابة في كتفي، لم
أعلم حينها أين أنا، آخر ما أذكره أنني
كنت في السيارة مع علياء ثم بعدها
ظلام دامس، لم ينتهي الألم بعد، مازال
ذاته لكنه الآن أصبح جسدي أيضًا
وليس في الروح فقط، حاولت فتح باب
الغرفة تلك كان مقفلًا، صرخت بأعلى
صوتي لم أستطع الابتعاد به كثيرًا عن
مكاني، فكرت في مخرج من سجني ذاك،
لم أجده، حاولت كسر الباب لكنه كان
مصنوعًا من الحديد المسلح.



قلتُ حينها: أين أنا يا الله؟ ما الذي آتى
بي إلى هنا؟ أين علياء، فارس والجميع؟

لم يكن يوجدُ معي في تلك الغرفة سوى
الوحدة، بعضُ الشموع، صورًا لأناسٍ لا
أعرفهم، بعضُ الماء، والقليلُ من
الأطعمة التي جار عليها الزمن، وقطع
من الخبزِ اليابس، أمضيتُ أول ساعاتٍ
من وجودي هناك في ضربٍ ذلك الباب
الحديدي ثم باقي الساعاتِ بالحزنِ
والقلق، كان من أكثر الأشياءِ بشاعةً هو
أن تبقى في دائرةٍ مظلمةٍ مع القلق على
عدم الخروجِ منها، وعلى من يوجدُ
خارجها، الصمتُ ليس حلًّا بل هو غالبًا
ما كان مشكلةً بهيئةٍ حل، فلم تأتي تلك
اللحظة التي سألتني بها حبيبتني عن



حالي كي لا أصمت رغم ذلك كنت أنظرُ
إليها بصمتٍ تام لكنني كنتُ أتحدثُ كثيرًا
فأتخطي حاجز الصمتِ وأتكلّم من جديد
لكنني الآن أصبحتُ فارغًا من النظرِ
لعينيها المختفية، أصبحتُ في معظم
اللحظات أصطنعُ لها صورةً لأراها وأهدأ
من ألمي قليلًا، فهي المُسكّن لألمي هذا،
بحثتُ مجددًا، عثرتُ على إحدى الكتبِ
القديمة وبعضُ الأوراقِ الفارغة
المتساقطة من هذه الكتبِ، وقلم حبره
أسود، فنفختُ على الكتبِ لأزيلَ ما
عليهم من غبار، علمتُ حينها أن هذا
الكون الصغير الذي حُجزتُ فيه كان
فارغًا منذُ زمنٍ طويل، شعرتُ هنا وكأن
هذه الغرفة أصبحتُ عبارةً عن طرقاتٍ



حيي الفارغة التي يمر طيفُ ليالٍ منها،
فيدخلُ إلى الداخلِ بين قلبي الذي وظيفتهُ
ليالٍ، وكبدي الذي تحرقهُ وظيفَةُ قلبي،
فحببتي لطالما كانت دائماً محطتي
الأخيرة، والمرسى لقلبي الغريقِ هذا،
تعلمتُ في غربتي هذه التي أعيشُها
مقولةً كانت:

- "احكم على نفسك بالفناء إن كنتَ لمن
تحب سبباً بعدم البقاء"

الحبُّ بقيّ بداخلي حتى أنقذني من
الموت مراراً وتكراراً، في ذلك الوقت
أنقذتُ نفسي فأخذتني الحياةُ بهتةً،
وجعلتني أرى كيف هو الفناء رغم
وجودِ الحب لكنني لم أنسى ليالٍ أبداً
رغم الحياة، عيناها الجميلة لازلتُ



مفتونًا بها، مشتاقًا لها الآن وفي كل آن،
في غيابها حُكمتُ بالعيش حياةً كاملة
داخلَ البركان لكن حِمَمَ هذا البركان لم
تكن ساخنةً في جميع اللحظات بل باردةً
في بعضها وساخنةً في بعضها الآخر
لكن الصعوبة كانت تأتي في برودتها
أكثرَ من سخونتها، فأصبحتُ أملكُ خيارًا
واحدًا بعد ذلك الأمر وهو الصمت كحلًا
لهذه المشكلة التي كان الصمت أيضًا
سببًا في خلقها، أكثرُ شيءٍ تعلمتهُ هو
أن الألم شبيهُ الأملِ بالأحرف لكن حين
أتيتُ للمعنى مع عدم تجاوزِ تفاصيله،
وجدتُ أن الأولَ منهما نداءً للثاني لكن
سواءً اختيارِ الأمل أو الألم، يترتبُ عليَّ
حينها محاربةُ الثاني لأنني سأقفُ حينها



في أحد الطرفين، وعواقب الاختيار ستكون ما يجب عليّ تحملها فقط، ربما تختار الحياة الألم لنا لكن صدقًا وإيمانًا علمت أنه لن يختار الأمل أو عدمه سوى نحن، فكل أحد منا هو شقيق نفسه في الاختيار، وهو أمر يتطلب بحثًا جيدًا حتى نجد الاختيار الأمثل لنا، سنجد من سيكون مماثلًا لنا والنظير أيضًا لكننا لن نجد من يدخل في ذلك الاختيار بدلًا منا، لن يكون الطريق ممهّدًا وسهل العبور، يوجد فيه ألف عيب بالدخول في كل اختيار لكن حقيقةً اختياراتنا القبيحة تلك سنختارها من أجل أمرًا واحدًا مختلف، معارضًا للكتب الحزينة، مناقضًا للبؤس، معاكسًا لليأس، نقيضًا لتفكيرنا



السلبى، سنعتز فيه خلافاً عن رأينا
الهمجى الذى اخترناه باستخدام عقل
غيرنا، وسنبداً حينها من جديد باختيارنا
نحن، جاعلين الأمل والألم سويةً في
كلمةٍ واحدةٍ وهي الحياة، لأنه لا يوجد
أملٌ من غير ألم، ونحن في ذلك الأمر
عشنا وجودَ الألم دون أمل، فاخترنا عدم
وجودِ الألم من غير أمل لذلك يجب علينا
المحاربة وتحمل النتيجة سواء كانت
خاسرة أم جعلتنا على قيد الحياة من
جديد، أنا الآن في حالتى هذه التى يرثى
لها، ليس لي حلاً سوى الأمل، لم أنفى
عدم وجودِ الألم معه، فهو صديقُ
الطريق، ومهما كانت الحياة قاسية لا بد
من وجودِ شيءٍ جميلٍ يُعطينا الأمل



للحظة القادمة، كان الشيء الجميل في ذلك الحين هو منديل ليال الذي بقيّ معي، لم أكن أعلم كيف ستكون لحظاتي لو أنني أوقعتُه في مكانٍ ما لكنني أحمدُ الله على عدم ذلك، ويجبُ عليّ الامتناع عن التفكير السلبيّ في ظل عدم حضوره في ذلك الوقت، وهنا أيضًا إن سألتُموني عن الحزن فهو موجود لكن لا يوجد أحد يحب الحزن، إنما الحزن هو الذي يختارُ بعنايةٍ من يحب فهو مزاجي أيضًا يختار مضيقه الضاحك، الفرح، المظمئن، والحي، يحب أن يعيش في هذا الوسط البيئي الذي تسوده هذه الصفات، والأصعبُ من ذلك أن تكاثره سريع، فعدة أيام فقط كافية ليصبح أكثر مما



يستطيعُ المضيفُ حملهُ، لم يُسَجَّلْ حتى
الآن طريقةٌ ولو واحدةً لتكاثره أو عددًا
محدد لکن الجميع يعلمُ أن في جميع
مراحلِ تكاثره سينقصُ شيئًا منا، فهو
يتغذى على أيا منّا الجميلة المحتوية على
ضحكاتنا، طريقةً انتمائِه كانت حسبَ
حبه للشخص، ووجوده كان حسبَ
توقيتِ لحظَاتنا التي لا نريدُها أن تنتهي
لكن رغمَ صفاته القبيحة تلك، من تغذيته
وغيرها إلا أنه يمتلكُ صفةً لا نراها في
أحد وهي عدمُ الرحيلِ والوفاء لصاحبه،
فإن أصبحَ بداخلك لا يترددُ في الوجودِ
دائمًا بقربك وعدمِ جعلك وحيدًا حتى في
نومك، كان يتمثلُ بهذه الصفة التي
أسميتها أنا جميلةُ الألم، الوقتُ هنا في



هذه الغرفة أصبح طويلاً جداً، فاليومان
هنا تعادل شهرين كاملين، حاولت كثيراً
فتح أية ثغرة لعل صوتي يخرج للخارج،
لم أعد المحاولة مرة أخرى، جلست
بعدها لقراءة ذلك الكتاب الذي أكله غبار
الحياة، كان هذا الكتاب يروي قصة
حدثت في زمن قديم، عن إحدى القبائل
العربية، كانت تلك القبائل في زمن وأد
البنات والخوف من العار إن كان الغلام
الذي بُشروا به أنثى، وكان من الفرض
لديهم إكرام الصبي والفرح والفخر
بقدومه، لم يكن يسود في تلك القبائل
سوى الجهل المتوارث بينهم والمتواصل
لكن في علم الوراثة أحياناً تحدث طفرات
تُخرج الشخص عن بعض صفات أصله،



في كُتُبِ العلم تحدثوا غالبًا عن الطفرات
الجسدية والخَلْقِيَّة لكن الطفرة التي مرّت
معي هنا كانت خُلُقِيَّة وليست خَلْقِيَّة،
فرُغم جهلِ الأمة كلها خرجَ منهم شخصٌ
يُخالفُ تفكيرهم السَلْبِيّ ذاك، فعندما
بشروه بأن جنسَ مولوده فتاة شعرَ
بالفرح والفخر وضمها إلى منزله لكن
القبيلة لم تكن تملكُ تلك الطفرة،
فجبناتها مازالت همجيةً جاهلة، فقرروا
وكان من بينهم أعمامُ الفتاة وأقربائها
أن يواصلوا ما كانوا يفعلوه وأخذُ تلك
الفتاة بالقسوة ودفنها لكن والدها أبى
هذا وقال لهم:

- متى أصبحتم تحكمون بالموت والحياة
على مزاجكم ثم إن كان يوجد أحدا يجبُ



أن يُدفنُ في التراب فهو أنتم بعقولكم
الفارغة تلك.

كان كلامه كبيراً على أهل القبيلة لكن
رغم ذلك هنالك من ذهب في صف والد
الفتاة وقدموا له الدعم، فإن كنت على
الحق فلا تخف أبداً، فربك سيؤيدك
بنصر من عنده، ثم اقترب قائد القبيلة
فأوقفه أحد الشبان المسلمين وقال له:

- أقتل من يدافع عن دفن ابنته التي لو
كانت كبيرة وجميلة لكنت أول القادمين
والطالبين ليدها؟ ولولا الأنثى لما كنت
الآن واقفاً آمناً، وكلامي ليس لك فقط
بل لكل الموجودين هنا، يا معشر القوم
لو أن إحدى أمهاتكم كانت مكان هذه
الفتاة لتمنيتم أن يكون لكم أباً مثل هذا



الأب هنا الذي يرفض فعل ما حرم الله تعالى، فكفوا بلاتكم عنه واجعلوا من جهلكم مساحة تدمركم بعيداً عن الآخرين.

فابتسم هنا الرجل والد الفتاة وأعلن إسلامه على الفور والكثير من الموجودين أيضاً فعلوا ذلك.

الجميل الذي رأيته في تلك القصة القصيرة هو أن تغيير مسار حياتنا أحياناً هو ما يجعلنا نمشي في الطريق الصحيح والابتعاد عن طريق السوء والجهل الذي زرع بداخل عقولنا فكرة واحدة وهي أن البقاء على ما كان أجدادنا عليه هو الأمر الصحيح، ونسيان ما يجب علينا نحن أن نبقي عليه.



أَمْضَيْتُ الْكَثِيرَ مِنَ الْوَقْتِ الَّذِي لَا أَعْلَمُ
كَمْ هُوَ لَكِنِّي شَعَرْتُ وَكَأَنِّي أَمْضَيْتُ
سِنَوَاتٍ كَامِلَةً هُنَا، بَدَأَ بَعْدَهَا الْمَرَضُ
يَأْكُلُ جَسَدِي وَقَوْتِي، فَالْبَقَاءُ مَدَّةً طَوِيلَةً
مَعَ كِسْرِ مِنَ الْخَبْرِ الْمَتَعَفِنِ وَبَعْضِ
الطَّعَامِ الْمَغْبَرِ، كَانَ جَيِّدًا جَدًّا لِدُخُولِ
السَّوَاءِ إِلَى جَسَدِي، شَعَرْتُ بِأَنْ نَهَايَتِي
هُنَا قَدْ اقْتَرَبْتُ، وَأَنْ اللَّحْظَاتِ الْقَادِمَةَ
سَتَكُونُ أَصْعَبُ عَلَيَّ، طَبِيبًا يَمُوتُ بِسَبَبِ
الْمَرَضِ، هَذَا لَيْسَ مُسْتَحِيلًا فَكُونِي طَبِيبًا
لَا يَنْفِي كَوْنَ جَسَدِي بِشَرِيٍّ، شَرَدْتُ مَدَّةً
مِنَ الْوَقْتِ بَعْدَهَا ثُمَّ اسْتَيْقَظْتُ.

قُلْتُ: هَا أَنَا الْآنَ وَحِيدًا، الْوَحِيدُ الَّذِي
مَعِيَ الْآنَ وَيَعَانُقُنِي هُوَ مَرْضِي، لَا أَحَدَ
هُنَا إِنَّهُ ضَوْءُ الشَّمْعَةِ فَقَطْ وَأَرْبَعَةٌ



جدرانٍ وصوت الهدوء يعزف سمفونيةً
صامتةً جميلة، أصبحتُ أشعرُ أنني لا
أسمع، كنتُ كثيرًا من الأحيان أصرخُ
لكي أتفقدَ سمعي، أحاولُ أحيانًا القيامَ
بأي شيءٍ آخرَ غير الجلوسِ هكذا
والموتَ بصمتٍ مؤلم، لا أريدُ شيئًا قبل
موتي سوى رؤيتك يا حبيبتي، فالموتُ
في تلك اللحظة سيدخلني للحياة.

جاءت لحظتي لكن قبل مجيئها حدث ما
فاجأني بشدة، فُتح الباب ثم ضوءٌ أبيض
قويٌّ كاد أن يعميني لولا أن وضعتُ يدي
أمام وجهي، أبعدتُ يدي لكي أرى ما
ورائها فإذا بوجهٍ تمنيتُ رؤيته قبل
موتي واستجابُ الله لي، ليالٍ حبيبتي هنا
نعم رأيتهَا أمام عيني اقتربتُ منها قليلًا



حاولت لمسها، يدي ترتجف كأني طالب
تخرج من كلية الطب ليقوم بأول عملية
لله لكن يدي وصلت على وجه ليال، إنها
في بر الأمان الآن، لم تعد ترتجف ثم
أمالت رأسها على يدي، آه يا حبيبتى كم
اشتقت لك، نطقت بعدها أو حاولت ذلك
لكن ليال وضعت اصبعها على فمي
طالبة مني الصمت ثم عانقتني وقالت
لي:

- نعم يا طيبي أنا هنا، بجانبك، لم
أتركك أبدًا ولن أفعل ذلك، اشتقت لك
كثيرًا يا حبيبي لكنني الآن أنا هنا.

ثم أمسكت يدي وطلبت مني الذهاب
معهما وقفنا وخرجنا معًا، وحين خرجنا
من الباب ذاك وجدت أنني في بستان



جميل جدًا، الشجر، الورود، العصافير،
السماءُ الزرقاء الصافية من دخانِ
الحرب، وولدٌ صغيرٌ يلعب هناك ثم
ركض وقفز عليّ وعانقتني قائلاً:

- أبي، اشتقتُ لك كثيرًا، هل أحضرت لي
دميتي الجديدة، أمي قالت لي أن والدك
سُيحضرُ لك دميةً جديدة عندما يعود.

- صغيري! الحسن! لقد كبرت كثيرًا يا
قلبَ والدك، ليالٍ، كم غبتُ من الوقتِ
أنا؟ أخبريني، هل غبتُ فترةً تجعلُ ولدي
يشتاقُ لي إلى الحد الذي جعلك تكذبنَ
به عليّ ولدي بأنني ذهبتُ لشراء دمية
له؟!



ثم ضحكت ليال وفجأة وجدت دمية في
يدي لا أعرف من أين جاءت، فطلبت
مني ليال أن أعطيها لابني، وقالت له:

- أرايت يا صغيري هذا والدك أحضر لك
ما وعدتك به، الآن أعطني يدك لنركض
سويًا فوق العشب الأخضر.

ثم ركضا، فركضت ورائهما لكنهما كانا
يبعدان أكثر فأكثر، ناديت بكل صوتي:
- ليال، الحسن، انتظروني.

لكنهما كانا يركضان وهما يضحكان،
أركض بكل سرعتي لكنهم أصبخوا
بعيدين كثيرًا ثم وقعت على الأرض،
نظرت لهما كانت صورتها تتلاشى شيئًا
فشيئًا حتى اختفوا عن عيني.



بكيثُ حينها قائلاً:

- لا تختفوا مجدداً يا حبيبتي، ليس الآن.

ثم فجأةً تلاشى كل شيءٍ حولي حتى
وقعتُ في ذاتِ الغرفة على ذاتِ السرير،
البابُ مغلق، ليالٍ ليست هنا، ها أنا
أموتُ مجدداً، ربما جاءت لتودعني
حبيبتي قبل أن أرحل، الآن ها هو الموت
لكنه لم يكن موتاً مريحاً، الروحُ تحترقُ
كأنها تموتُ لكن جسدي لا يُخرجها،
كأنها ضجرتُ من كونها لوحهً موجودةً
على أحدِ جدرانِ تلكِ الغرفة.

كنتُ أراكِ فيها دائماً يا حبيبتي لكنها
اليوم كانت عبارةً عن شجرةٍ ونهرٍ
وكوخٍ صغير، أين أنتِ؟ أين ذهبتِ
مجدداً؟ حتى من مخيلتي هربت، حتى



في مخيلتي تتركيني وحيداً، احترقت
آمالي جميعها في تلك اللحظة، بداخل
تلك الحفرة التي دُفنت آمالي بها كأني
دُفنت أنا في داخل الحفرة قبل آمالي،
روحي تغيب الآن وهي شائبة، يا ليتها
ذهبت لتطمئن قلبي عن حبيبي الغائبة،
لو أن روحي صعدت مني وحبيبي
بقيت، فما مت حينها، فالروح حبيبي
حتى إن كانت روحي مني هاربة، فلا
حبيبي الآن هنا وروحي بدأت بالرحيل،
فكيف نبضات قلبي مازالت مدببة،
روحي غابت منذ رحيلي عنك، فهي
متعلقة بك ولست أراها مذنبه، لو أن
جروحي تتوب عن نزفها، ولو أن
روحي تعود وهي تائبة، أصبحت منسياً



كأني أعيشُ في سماءٍ فارغةٍ لكن تلكَ
السماءَ كانت محدودةً بجدرانٍ أربعة،
كنتُ كسكةٍ لم يمر عليها القطار لمدةٍ
ألفٍ عامٍ فأكلها الصداُ وتهتك، كقطعةٍ
خبزٍ سقطت في الماء فلا تستطيعُ العومَ
جيدًا ولا تغرق، فقلتُ لنفسي:

- ها هيَ لحظتي قادمة.

أغمضتُ عينيَّ وجلستُ بطريقةٍ محترمةٍ
لكي أستقبلَ الموتَ بطريقةٍ تليقُ بهِ،
ظلت عيناَيَ مغمضتان لكنني لم أمت بل
أعطاني الموتُ فرصةً أُخرى، فقد اعتادَ
الموتُ على استقبالي له وأنا أنظر له،
فلم يتقبلَ مني إغلاقَ عينيَّ، كنتُ في
غيوبةٍ مؤقتةٍ لأصحي من جديدٍ في
المستوصفِ الذي كنتُ بهِ وأرى أنني



كنتُ داخلَ حُلْمٍ بداخلِ حُلْمٍ فقط، وأنني
بعدَ حدوثِ الانفجارِ قد نقلوني إلى
المستوصفِ هنا لكي تعتني بي عِلاء
هناك، وقبلَ قدومنا للمستوصف
اضطررنا التوقفَ في منزلٍ قريبٍ من
الانفجارِ حتى تهدأَ رصاصاتُ الموتِ عن
سيرها لكن في حُلْمي كانت بعضُ
الأشياءِ صحيحةً كأنني كنتُ واقعياً في
حُلْمي، فنظرتُ لكتفي المصاب الذي
عالجتهُ عِلاء ثم نظرتُ لها فقالت لي
أنني تحدثتُ كثيراً في غيبوبتي ولم
أصمت حتى أنني كنتُ أصرخُ في بعضِ
الأحيانِ فاستغربتُ أنني كنتُ في منامي
لا أمارسُ شيئاً سوى الصمت لكن
صمتي ذاك كان له صوت، فسجّلتُ



علياء كل كلمة قلُّتها وكل ما حدثَ معي
وروثه لي من جديد كأنها تروي لي ما
حدث معي البارحة، فعندما انتهت قلتُ
لها:

- كنتُ قد امتلأت بالموت وأنا نائم ثم
أيقظني الواقعُ لأجد أن الموتَ يملأ كل
شيءٍ حولي إلا أنا، فأنا مازال داخلي
حيًا تبضُ داخله ليالٍ التي رأيتها تنيرُ
لي حياتي من جديد.

ثم حاولتُ الوقوف فلم تسمح لي علياء،
وطلبت مني أن أبقى مُستلقيًا قليلًا حتى
أعود قويًا، سألتُ علياء عما حدث
فأخبرتني:

- لقد مشينا قليلًا بالسيارة ثم نزلنا في
مكانٍ لكي نهرب ثم أتت قذيفة دمرت



سيارتنا فاعتقدوا أننا متنا لكن أحد
الشظايا تطايرت وضربت في كتفك
خارجة من الجهة الأخرى، ونزفت كثيراً
من الدم حتى وصلنا إلى هنا ثم وقعت
على باب المستوصف ودخلت في
غيوبة دامت حتى الآن.

- حتى الآن! كم بقيت نائماً يا عليا؟ أخبريني؟

- يوماً كاملاً يا أحمد.

٢٦ آذار ٢٠٠٣

لم تكن تعلمُ علياء أن استراحتي حتى
كانت مؤلمة من دون ليالٍ، فرفعتُ
رأسي قليلاً ونظرتُ للمستوصف الذي
أصبح متأكلاً بالرصاص والقذائف،
وفارغاً من الكثير من الناس، استغربتُ



أنه فارغ بعد امتلائه بكل أولئك الناس،
أين ذهب الجميع؟! هل للموت أم للحياة
بعيداً عن هنا؟ أم أنهم قد نجحوا بالذهاب
مع فارس خارج هذه الدائرة المظلمة؟
لم أعلم لكن لا أستطيع أن أقول ما أشعر
به، فلم أعلم إن كان عليّ الفرح أم
الحزن برحيلهم، مرت عدة أيام على
بقائي في منزلة المريض، لقد كتب عليّ
أن أشهد مثل هذه اللحظات، بعد عدة
ساعات أخرى أتت لي علياء بخبر
جعلني أقف من جديد، فقد أصبح
بإمكاني الخروج من ذلك الحي، فرحت
لأنني سأرى ليالٍ أخيراً، لا تعلمين يا
حبيبتي عدد الأماكن التي ذهبت لها
محاولاً البحث عن طريق أصل فيه لك،



فالمريض أول شيءٍ يريدُه هو الشفاءُ
من سقمه حتى وإن كان في طريقِ
البحث عن دواءه ألف مرضٍ آخر كذلك
كنتُ أنا أبحثُ عن طريقٍ أصلُ بهِ إلى
دوائي، لم يُهمني عدمٌ وصولي مرةً
أخرى، سأبحثُ من جديد، فالفشَلُ في
العشورِ عليكِ هو من سيجعُنِي أقومُ
بالخطوةِ التالية، فظمأ قلبي ذاك لا يرويه
سواكِ أنتِ، سأجوبُ الصحراءَ كلها لعلني
ألحقُ إحدى الكلمات منك أروي نفسي
بها قبل الموت غارقاً في عطشي،
فنهضتُ مسرعاً لأجهزَ نفسي، فقالت لي
علياء:

- لا يمكنكِ الآن، يجب أن تنتظرَ لمساء الغد.

كانها قالت لي انتظرِ عدةَ أعوامٍ أخرى.



في ذلك الوقت بقيت عدة أعوام أنتظرُ
ذلك المساء حتى أتى الليل حاملاً معه
سوادهُ الذي سيحميني من قاتلين الضوء
هممتُ على الرحيل، لم تستطع علياء أن
تأتي برفقتي، فكان لديها القدرة
التنافسية العظيمة مع الألم، فقررت
البقاء هنا ومساعدة الناس، أما أنا
فقررتُ العودة بعد ثمانية من الحولٍ قد
مضت فقد دخلتُ بمساء اليوم السابع
والعشرين من مارس، الرحلة كانت
لخمسة سنواتٍ (أيامٍ) فقط لو أنني
استطعتُ العودة مع صديقي فارس لكن
الحرب فرضت عليَّ أن أتأخر عنك يا
حبيبتي، ودعتُ علياء وخرجتُ للطريق،
كان يجبُ عليَّ قطع خمس وعشرون



كيلو متراً سيراً على الأقدام كي أصلُ إلى
الباصِ الذي سنصعدُ بهِ أنا وبعضُ
الأشخاصِ هناكِ لأننا سنخوضُ طريقاً
آخرَ لكي نذهبَ إلى الخارجِ، في طريقي
كنتُ أنظرُ للنجومِ وأقولُ لها إنني ذاهبٌ
للقمرِ الآن، فلا بأسَ بعدَ الآن، وتذكرتُ
حُلمي الذي رأيتهُ كأنني خرجتُ لتوي
من تلكَ الغرفةِ، ففي بعدكُ عني يا ليالِ
حتى في حُلمي قد سُجنتِ، الآن أنا
كشخصٍ خرجَ لتوهٍ من السجنِ لكن
الممرَ بعدَ الآن طويلاً حتى أصلَ وأرى
الضوءَ مرةً أُخرى، في وحدتي التي كنتُ
بها في حُلمي تعلمتُ أن إلقاءَ اللومِ على
أحدٍ ليسَ موجودَ لا يُجدي نفعاً مع الذاتِ
وأنه ليسَ هنالكُ أحدَ بقربي، وأنني



سأخونُ نفسي ذاتَ يومٍ وسترحلُ ذاتي
عني لكن تلكَ هي الخيانةُ المشروعة،
فهنا الخيانة ستكون صديقةً مع الوفاء،
وحتى الوفاء لن يفهمَ ما الذي حصلَ هنا
سوى أن ذاتي قررت خيانتني ولكن
بأخذي معها وتركي في منتصفِ الرحيل،
لا العودةُ ممكنة، ولا البقاءُ يُجدي نفعًا،
فقررتُ أن أكملَ الطريقَ معها، فوصلتُ
في النهايةِ إلى الداخل، داخلَ الحياة،
فأعطاني وجودي هناكَ خيارين، إما
البقاءَ من أجلِ الباقيين أو الرحيلَ مع
الراجلين، فرحلتُ مع الراحلين لكن كلفةَ
الرحيلِ تلكَ لم أظلمها لاحقًا فقررتُ العودةَ
من جديد، فوجدتُ أن الجميعَ رحل،
فبقيتُ مع وحدتي مجددًا لتلقي درسًا



آخرَ في الحياة ثم تحررتُ من وحدتي
باستيقاظي وكان حلمي ذاكَ كان واقعيَّ
الذي حُصرَ في غرفةٍ مظلمةٍ تضئُها
شمعةٌ صغيرة كنتُ أشعرُ أنَّ تلكَ الشمعةَ
لا تنتهي كحبي لكِ، فعلمتُ من أين أتاني
الضوءُ في حلمي حيثُ كان ذلكَ الضوء
عبارةً عن شيءٍ واحدٍ فقط، وهو أنه
حتى لو كنتُ في منتصفِ اليأسِ، فهناك
أملٌ، بوجودكِ الأملُ موجودٌ، والأملُ لا
يموتُ أبدًا، فلا تموتي يا وحيدتي، فأنا
قادمٌ لكِ، يمكنُ للأملِ أن يُقتلَ لكنه لا
يمكنُ أن يموتَ، هكذا كان حبكِ يا ليالٍ،
قتلتُ الحياةَ لكنه مازالَ داخلي حيَّ
يرزقُنِي الطمأنينةَ للاستمرارِ، وصلتُ
بعدها إلى ذلكَ الباصِ الشبهِ مدمرٍ، كان



هنالك الكثير من الناس، والكثير من
البكاء، فالمكان الذي يوجد به الناس هنا
توجد به الدموع دائماً، فهنا تدفع الجزية
بالدموع، قال السائق إننا يجب علينا
الرحيل بعد ساعة من الآن، لازلت
سأنتظر عاماً آخر يا حبيبتي، فذهبت
وجلست أنتظر في إحدى الزوايا، أنظر
إلى تلك الشوارع التي أفرغتها الحرب،
كيف تفرغينها أيتها الحرب القاتلة، كيف
تأخذي الثمار البرتقالية من شجرة
الليمون، كيف لك أن تكوني قاتلة
متسلسلة ليس بها رحمة إلى هذا الحد،
تلك البيوت التي أصبحت الآن كهوفاً
تسكن بها بعض الجثث لن تسامحك
أصحابها، أعدك أيتها الحرب، قلت من



جديد بعد رؤية كل تلك المشاهد، أهلاً
بعصر الجاهلية من جديد، لا يمكن الآن
البقاء في الفراغ، الامتلاء هنا ليس
بالأمر الممكن، نظرت بعدها للسماء
لأنني مللت من فراغك أيتها الأرض
الحزينة، السماء تستقبل كل يوم من
تقتلين أيتها الحرب، تلك النجوم أصبحت
تعلم أنها تضيء كل يوم لكي لا تموت
قلوب الناس من بعد موتهم، ولكي
يجدوا السماء مضيئة بعد رحيلهم من
هذه الأرض المظلمة، لو كان كل هذا
الموت عقاباً لنا، فنحن لم نرتكب ذنباً
كبيراً لهذه الدرجة، ما ذنبنا إن كان في
دربنا أن نعيش، والحرب لا تريد ذلك،
فبعد كل ذلك الدم لا يمكن أن نجلس



جانبًا كأننا نجلسُ على نهرٍ جارٍ، ذلك
النهرُ كان أحمرَ اللون وليسَ بـلا لونٍ
كالماء، فهنا الحرب، جعلت للماءِ لونًا
أحمرَ وطعمًا يُذكرنا دائماً بأنها هنا،
لكنني أعلمُ أنها مشيئةُ الله وستفرجُ
قريبًا وسيزولُ الألم، نادى علينا سائقُ
الباصِ لكي ننطلق، صعدنا على متنِ
الباصِ ذاك، نظرتُ بعينيَّ الباكيتين إلى
تلك المدينة، ها أنا ذاهبٌ يا مدينةَ
الموت، هذا ما أطلقتهُ على تلك المدينة
في تلك اللحظة، فأولُ من قتلتهُ الحرب
هو تلك المدينة، ليس رحيلي عنكِ كرهًا
يا مدينةَ حبيبتي، إنما نجمتكِ الغائبة
تنتظرُني وأنا ملأتُ من بعدها عني،
فشوقي ذاك أكبر من قدرتي على البقاء



هنا، قلبي مطمئنٌ عليكِ لأن بكِ عياء،
بأمانِ الله يا مدينتي، ثم جلستُ على
أرضيةِ الباصِ الحمراء، أصبحَ كلُّ شيءٍ
أحمرَ اللونِ في هذه المدينة إلا لونَ
السماءِ.

لم تكن الأيامُ قليلةً في بُعدي عنكِ يا
حبيبتي، الدهرُ لا يمكن أن يكونَ طويلاً
إلى هذا الحد، يا ليتني علمتُ أنني
سأبتعدُ عنكِ كل هذا الدهر، لجلستُ قربكِ
ألفَ ساعةٍ في اليوم، ولم أكن سأنتهي
منكِ، لقد سُرقتُ مني أيامي بذكرياتٍ
مؤلمة، أصبحتُ ذكرياتي تلكَ مترجمةً
الآن لكنني لم أعد أفهمُ أيةَ لغةٍ في بُعدكِ
يا ليالٍ، أتحدثُ بالصمتِ فقط في غيابكِ،



رغم أن الصمت لم يعد يجدي نفعا لكن
الكلام لم يجعلك هنا أيضاً.



نسمات الادب

لنشر الإلكتروني



الفصل الرابع

طريق العودة

نسمات الادب

للنشر الإلكتروني



وصلنا حدودَ المدينةِ بعد وفاةِ الوقتِ،
فتلكَ الساعاتُ التي قضيتها في الطريقِ
كانت أطولَ من أن أراها في أيّة ساعة،
كان هنالك حاجز عند حدودِ المدينة،
طلبوا من السائقِ التوقفَ جانباً ثم ذهبَ
السائقُ للتحدثِ لمن كانوا على ذلك
الحاجز، لم يعد ذلك السائقُ، أدخلوه
للداخل، انتظرنا قليلاً وبعدها سمعنا
صوتَ انفجارٍ حدثَ بالقربِ من موقعنا،
نظرتُ من النافذة، كان السائقُ يركضُ
باتجاهِ الباصِ ظاهراً على وجهه جميع
تفاصيلِ الخوفِ، وعندما أمسكَ بابَ
الباصِ أطلقوا عليه فسقطةً على الأرضِ
ثم ذهبَ جميعُ من كان على ذلك الحاجز،
فنزلتُ بسرعةٍ إلى الأسفل وحملتُ جثةَ



السائق ووضعتها في الباص، جلستُ في مكانه وانطلقت، لا أعلم من الذي كان يُطلق علينا لكنني لحقتُ الذهاب قبل أن يقتلوا أحداً آخرَ منّا ثم بعد قطع مسافةٍ عن ذلك الحاجز توقفتُ جانباً لكي أكرم السائق بدفنه، بكيتُ عليه فقد كان السائق الوحيد الذي وافقَ على المجيء من أجلاً ثم صعدتُ لكي أصلَ إلى منزلي لقد أوصلتُ الجميعَ إلى منازلهم ثم ذهبتُ بطريقٍ منزلي، هذه ليست المدينة التي تركتها، لقد دمروها أيضاً وامتلات بالجثث على جوانبِ الطرقات وباليوت المهدمة، لم يكن في الطريق أحدٌ غيري أنا لكنني لم أتوقف، كان الأمر الذي يعطيني القوة أنني ذاهبٌ إلى حبيبتني



ليالٍ، وصلتُ إلى منزلي، ها أنا في
ميدانك يا حبيبتِي، عدتُ إلى المكان الذي
ابتعدتُ عنه من أجلكِ لكن عدتُ من
أجلي، عندما وصلتُ لم أعلم أن هذا
حيي، وأن شارعَ منزلي هو هنا، كان كلُّ
شيءٍ مهدم، دخلتُ مسرعًا للداخل لكن
لم يكن هنالك داخل، ولم أجد حبيبتِي، كلُّ
ما وجدتهُ كان عبارةً عن حجارةٍ فوق
حجارة، هدموكِ يا منزلي، لم يُهمني
حاليًا الحزنُ حيالَ ما رأيتُ، قلقلني كان
في سؤالٍ واحدٍ هو أين أنتِ يا ليالٍ؟
خرجتُ أبحثُ في الشوارعِ عن حبيبتِي،
هذه ليست المدينة التي تركتها، كنتُ
أعاهدُ هذه الكلمة عندما أنظرُ لأيِّ شيءٍ
كلُّ شيءٍ أصبحَ عبارةً عن رمادٍ وموت،



كلُّ شيءٍ هنا قُتلَ في جولةِ الحربِ هذه،
سمعتُ عندها صوتَ رصاصٍ متتالي،
فذهبتُ راكضًا ونظرتُ من وراءِ
الجدران، كان اشتباكا بين طرفين، لم
أعلم من هما لكن الذي أحزنني هو أن
الطرفانِ يقاتلونَ بعضهم في مدينتي
الهائلة من القتل، والذي أحزنَ قلبي
أكثرَ من ذلك أنهم كانوا يستخدمونَ
المدنيين هناك كدروعٍ بشرية.

- ما ذنبُ هؤلاء الناس أيتها الحرب؟
ماذا فعلوا حتى يُقتلوا هكذا؟ بهذه
الطريقة البشعة أيتها الحرب! من الذي
يُقتل ومن القاتل؟ من يرتدي منهم ثوبَ
المقاتل؟ أيتها الحرب اهدي، أعدائنا
أصبحتُ نحن، ونحن من نقتلُ أعدائنا.



قالت الحربُ لي:

- لن تفهم اللغة التي أتحدثُ بها، فأنا
المُدْرِسة وقلمي الموت، وفي كل حرفٍ
من حروفي الأبجدية يجبُ أن أقتل
أحدهم حتى يصلُ معنى هذا الحرف، لم
يكن المهم من أقتل لكن من يتحدثُ
بلغتي سيصبحُ إما ميتًا أو قاتلاً.

الحربُ لا تعلمُ أن لغتها كانت إما ستقتلنا
أو قلوبنا، لكن برأيي أنا لو خُيرتُ في
نهايتي سأختارُ الموتَ لي قبل قلبي،
عودتي للحياة هينة لكن بموتِ قلبي
سيصبحُ كلُّ شيءٍ ميت، والقاتلُ لكل
شيءٍ هو ذلك القلبُ الميت، ومُدْرِستُهُ
هي الحرب، بعد كل هذا القتلِ وكل هذا
الدم أصبحَ بإمكانني أن أقول:



- أن المنهاج الذي تفرضه الحرب علينا،
لم نفقه فيه شيئاً سوى أن في نهاية كل
درس أو اختبار سيموت أحدهم حيث
ستكون تلك النهاية هي نهاية السطر في
إحدى الروايات التي سيموت في ختامها
إما الأب، الأم، الابن، الأخ أو الأخت،
وربما الجميع إن كانوا محظوظين في
قسمة الحرب تلك، لم يأتي بعد الدور
لي لكني من الآن أخرجت قلبي من
الدور كي لا يُقتل، ووضعت نفسي في
ذلك الدور، عدت وبحثت من جديد، لطي
أجد أحداً يُخبرني شيئاً يُطفئ نار القلق
من داخلي، لم أجد أحداً، عدت إلى
منزلي خالي الوفاض ونمت فوق
الحطام، لم يأتني النوم لكنني كنت خارج



الحياة قليلاً أفكرُ بكِ فقط يا حبيبتي،
حبيبتي سلطانتي وأميرتي أصبحتُ
محاصراً بالحياة فأنقذيني، أين أنتِ؟

في اليوم التالي خرجتُ باحثاً من جديد،
فعلمتُ أن حبيبتي سافرت إلى مدينةٍ
أخرى بعد دمارِ منزلنا، عدتُ إلى الباصِ
وذهبتُ به مباشرةً إلى تلك المدينة،
وبعد كل هذا لم أجدها، فسألتُ عنها من
جديد، حتى الطفلُ الرضيع سألتُهُ عنكِ يا
حبيبتي، سألتُ الشجرَ، الورود
والأرصفة وكل شيء، العصافيرُ في
السماءِ سألتُها عنكِ، سألتُ عنكِ وكأنني
كنتُ أبحثُ عن ذاتي الضائعة مني، كنتُ
ضائعاً في بحثي عنكِ يا حبيبتي، بحثتُ
في كل مكانٍ ثم قررتُ بعدها البحثُ في



المشافي والمراكز الحكومية جميعها،
تمنيّت أن لا أجدك في سجلات إحدى
المشافي ربما سيطول الغياب أكثر لكنني
كنت سأتمنى لو رأيته في مكان آخر
على أن أجدك في إحدى المشافي ثم
وجدتك في مكان خوفي حيث قلت
للمرضة في المشفى:

- ابحتني لي في السجلات لديك لو
سمحت فإن وجدت اسم حبيبتني ليال فيها
فلا تقولي شيئاً أنظري داخل عيني فقط.

بعد إن وجدت حبيبتني سألتني:

- من تكون بالنسبة لها؟

احترت في الجواب، ماذا سأقول يا ليال
على هذا السؤال الذي من واجبك أنت أن



تعطيني جوابه وأنت لست هنا، فقلتُ بعد
تلك الحيرة:

- أنا زوجها.

المرضة: لقد أتتنا معلومات أن زوجها
قد استشهد عندما كنا نبحث في ملف
المریضة.

فقلت بكل حزن:

- مریضة! أيتها الممرضة أنا لست في
حالٍ اشرحُ لك فيها قصتي لكن أرجوك
ابحثي لي عن حبيبتی جيداً هل هي في
السجلات إن كانت هناك فافعلي فقط مثل
ما قلتُ لك، وشكراً.

انتظرتُ بعد ذلك لمدة خمسة دقائق ثم جاءت
تلك الممرضة ونظرت لي بحزنٍ عميق.



فقلتُ لها: في أية غرفة وضعتموها؟
وما مرضُها؟

ما قالتُهُ في تلك اللحظة أصعب من كل
شيءٍ عشتُهُ خلال الثمانية أيام القديمة،
فكان مَرَضُ حبيبتي هو نَزْفٌ داخليٌّ
وذلك بسببِ اغتصابٍ عنيفٍ وتعذيبٍ
قوي تعرضت له ليالٍ ثم أرشدتني إلى
طريقِ الغرفة التي يُبقونَ فيها حبيبتي،
وقبلَ ذهابي التفتُ لها وقلت:

- كان لي ابناً أيضاً هل هو هنا؟

قالت لي: البقاء لله والعمر لك.

حزنتُ بشدةٍ وقلتُ بداخلي:

- "ما نوعُ هذه الحياة يا الله، هل يمكنُ

للشخص أن يحملَ كل هذا الألم، فالمنجاة



لي من ألمي أصبح مؤلماً، كيف للعرب
أن تغتال بعضها وتدّعي أن هدفها الأول
والأخير هو السلام؟ هل السلام هكذا؟
كيف تقتلون بعضكم؟ ومن يقتلنا نحن
هو من يستخدمكم، فقد قال لي أحد
الناس حين بحثي عن حبيبتني أن من
فعل هذا بمدينةنتي هم مجموعة إرهابية^{٢٨}
عربية اجتاحت تلك المنطقة، كانت كلمة
عربية أصعب كلمة بين تلك الكلمات،
كانت قد دخلت وطغنت داخل قلبي ألف
طغنة ثم قالت بعد ذلك هدفنا هو السلام،
كيف يريدون السلام باغتصابه؟ برأيي
إن كان للسلام اسم آخر سيكون ذلك
الاسم هو ليالٍ"



ذهبتُ مسرعًا لغرفة حبيبتي، وجدتُ
هناك نسمة تقفُ أمامَ بابِ الغرفةِ تبكي،
بكيَتْ حينها لكنَ دموعي تلكُ كان لها
صوت، سمعتهُ نسمةُ فرأتني وجاءت
مسرعةً، عانقتني وقالت لي:

- لماذا تأخرت يا طبيبها، لماذا تأخرتُ؟

فقلتُ لها: تأخرتُ! هل ماتت؟ قللي لي.

صمتتُ وذهبتُ بعيدًا عني، بعد ذلكُ
ذهبتُ بخطواتٍ حزينَةٍ إلى غرفة ليالٍ،
مع يدايَّ الراجفتان، جسدي المرتعش،
قلبي الذي فاقتُ سرعتهُ الحدَّ الطبيعيَّ
في النبض، وضغطي الذي أصبحَ في
السماء من كثرة ارتفاعه، وضعتُ يدي
على مسكِّ البابِ كأنني أضعها في
داخلِ بركانٍ من الثلج ثم فتحتُ البابَ



ببطء بسبب توترتي، رأيتُ حبيبتي
مستلقيةً على فراش الموت، فقد أسمى
تلك الأماكن في فترتي الأخيرة بأفرشة
الموت، دخلتُ للداخل، كانت حبيبتي
نائمةً كالملاك، قلتُ في نفسي:

- "ها أنا أراك يا حبيبتي، لكنني "

بكيتُ بعدها بصمت ثم اقتربتُ منها ببطء
جلستُ بجانبها، وضعتُ يدي على
جبينها وقلتُ في نفسي مجددًا:

- "ها أنا أضعُ يدي في الثلج بعد ما
أحرقتها أيتها الحرب، ها أنا في غرفتي
القديمة التي كان عنوانها ليالٍ، وداخلها
ليالٍ وصاحبُها ليالٍ، فليالٍ هي التي تملأ
مجالسَ مملكتي، حبيبتي أنا صغيرٌ جدًا
على أن أراك هكذا، أنا لا أقوى على



الفراق، لا أقوى على رؤيتك طريحة
الفراش بمدينة لا أعلم فيها شيئاً بل
الحياة كلها لا أعلم فيها شيئاً في
غيابك.

نسمات الأدب

لنشر الإلكتروني



الفصل الخامس

ألم العودة

نسمات الادب

للنشر الإلكتروني



إنه لشيءٌ مخيفٌ أن ترى أقربَ الناسِ
لكَ واقعةً في هذه اللحظة، لا تعلم هل
تشفق على نفسك أم عليها، إنها حبيبتي
ليالٍ التي هنا، ليتني أستطيعُ قطفها من
هذه الأرضِ المحرمة وأخذها وغرسها
في داخلي لتعيشَ حياةً تليقُ بها.

- حبيبتي ليالٍ عندما ودعتُكِ كنتِ نائمةً،
الآن أنتِ هكذا، حبيبتي لقد بقيتُ أنظرُ
لكِ وأنتِ نائمةٌ مدةً كافيةً، حبيبتي لقد
كنتِ أعدُ الأيام في بعدكِ بالسنين، الآن
كيف سأبعدُ عنكِ سنينًا كاملةً؟ كيف
سأحسبُ تلكَ السنين؟ كيفَ سأعثرُ على
نفسي من جديد؟ لا تتركيني يا حبيبتي،
لا تتركيني فأنا متعبٌ جدًا يا راحتي
وعدتُ لكِ الآن، أعدكِ لن أذهب مرةً



أخرى، أرجوك لا تتركيني، استيقظي يا
حبيبتي، اشتقتُ لعيناك تلبسان الربيع
وتغردُ داخلهما العصافيرُ في غابتك
الخضراء، لا تخفي وراء جفونك حياتي
بعد الآن، أعطيني إياها يا حبيبتي.

انتهت تلك اللحظة بالصمت بعد نظرٍ
طويل ثم نمتُ بقربها واضعاً رأسي في
أرضها ماسكاً يدها، وبعد فترةٍ من
الزمن شعرتُ أن يدي التي أعانقُ بها
يدها قد شُدَّ عليها، وبدأت تدفأ من جديد،
فنهضتُ مسرعاً ونظرتُ إلى حبيبتي، ها
هي تفتحُ عيناها من جديد، ها هي
حبيبتي تُعطيني خبراً أن الهلال بدأ
بالظهور وسيُصبحُ بدرًا بعد قليل، فرحتُ
وقلتُ لها:



- حبيبتى ليالٍ.

- طيبي ... قالت بصوتٍ خافتٍ وراجفٍ.

فقلتُ لها: طيبكِ هنا يا حبيبتى، أنا هنا،
زال البأسُ يا حبيبتى.

ثم بدأ الحديثُ بيننا:

- لقد عدتُ يا حبيبتى، لقد عدتِ.

- أهلاً بكِ يا طيبي.

- طيبكِ لم يستطع إنقاذكِ يا حبيبتى،
طيبيكِ أنقذَ ألفَ عربيٍّ لكنه لم يلحق أن
ينقذَ ما سببته العرب، لم ألحق أن أكونَ
بقربكِ يا ليلاتي وحبيبتى.

- لم انتظركِ لتقولَ لي هذا، شعرتُ أنكِ
بقربى فاستيقظتُ من نومي لأراكِ،
اشتقتُ لكِ يا قمرى الغائب، اشتقتُ أن



أراك بقربي تمسكُ يدي وتقولُ لي أن كل
شيءٍ سيمضي وسيصبحُ أجمل، وأن
الألم سيزول.

- كنتُ أقول لكِ هذا يا حبيبتِي لأن كل
شيءٍ كان يمضي عندما تكونينَ بقربي،
وأنا اشتقتُ لكِ يا زهرةَ الياسمين، يا
عمري، لم أكن أعلمُ أن هذا سيحدثُ لكِ
إن ابتعدتُ عنكِ، ما كنتُ ابتعدتُ يا
حبيبتِي، ما كنتُ ابتعدتُ.

ثم قالت ليالٍ وهي تبكي كلامها الذي أبكاني:

- لقد قتلوا ابننا يا حبيبي، اعتقدتُ أنني
فقدتكما أنتما الاثنان، لم يرحموا ولدًا
صغيرًا، لقد قتلوا صغيري يا حبيبي،
اختطفوه وأطلقوا عليه في الخارج لقد



سمعتُ صوتَ الرصاصة التي قتلته،
صوتها لا زال في أذني.

- أعرف أنه من الطبيعيّ البكاء الآن لكن
لا تبكي يا حبيبتي، لا تبكي كي لا تبكي
الحياة بي من جديد، لا تبكي دموعك تلك
أغلى من كل حياتي، صغيرنا يا حبيبتي
أصبحَ عصفورًا في الجنة سيغرد ذات
يومٍ في بستاننا، سنعيشُ معًا ونأكلُ معًا
لكن في الأعلى ذات يومٍ يا حبيبتي، يا
قمري لا تتركيني وحيدًا، الحياة مؤلمة
كثيرًا من دونك، فأنا أعلمُ ماهي حالتك
كوني طبيب لكن كوني حبيبك ليس لي
القوة على تصديق نفسي، حبيبتي أنا
صغيرٌ على فراقك.



ثم رحبتُ بي ليالٍ من جديد لتجعل لقائنا
هذا كأنه بدأ الآن:

- أهلاً بك يا طيبي، اشتقتُ لك أكثر من
كلِّ شيء، أرجوك لا تبكي في غيابي،
أحببتك ومازلتُ وسأبقى أحبك أكثر من
كلِّ شيء.

- أهلاً بك في كل لحظةٍ يا حبيبتِي، لو
كان الأمرُ بيدي لرتبتُ لقاءً لنا خارجَ
هذه الحياة لاحتضنتكِ طوال الوقت حتّى
وإن انتهى الوقت لن أترككِ وسأبقى
أحبك، ولن أغيبُ عنكِ مجدداً.

- اعتني بنسمة في غيابي الطويل القادم
ولا تبكي، فأنا سأموثُ الآن بعيونٍ
مُغمضةٍ لأنني رأيتكِ قبل موتي ولا أريدُ
رؤيةً شيءٍ آخر، كنتُ أشعرُ أنك لم تمت



فانتظرتك دائماً، وكنتُ سأموثُ مرتين لو
أنك متٌ ولم أحظى برويتك قبل موتي،
الحمدُ لله على أني رأيتك يا طيببي.

- لا تتكلمي وكأنك تودعيني يا ليالٍ، لا
تقتليني مرتين، دعيني متمسكاً بحفنةٍ
من الأمل حتى ولو كانت نسبتها هي
بذاتها تقتلني، دعيني فقط أنظرُ لكِ،
دعيني أرى حياتي التي اشتقتُ لها، لم
أتمنى رؤيتك هكذا لكن دعيني أراكِ فقط،
اشتقتُ لكِ يا حبيبتي، لعينيكِ، سهولُ
خديكِ، رموشُ عينيكِ، لشعركِ الذهبي،
ورائحتكِ الدافئة، اشتقتُ لكِ يا حبيبةَ
قلبي، يا زهرتي وبستاني.

- وأنا اشتقتُ لكِ، الحياةُ فارغةٌ كانتُ
من دونك، البيتُ كانَ فارغاً، كل شيءٍ



أراك به لكنك لست هنا، تمنيت لو أنك
أيقظتني قبل ذهابك، كنت سأنظر لك
وأعانقك وأقول لك أحبك يا طيبي، لماذا
لم توقظني قبل ذهابك؟

- لو أني فعلت ذلك لما استطعت الرحيل
بينما عيناك تنظران لي، لشعرت طوال
الوقت أنني قد نسيت شيئاً مهماً فأعود
إليك لأنظر لك من جديد، وأنت تعلمي
أنني لا أحب شعور العودة من أجل
الرحيل مجدداً لذلك كنت أحاول عدم
نسيان شيء قبل رحيلي، فلم أوقظك
حتى لا أنسى نفسي عندك رغم أنني
فعلت ذلك.

- لم أعلم أن الحياة ستكون قاسية معنا
لهذه الدرجة، كنا في خير، كنا في رضاء



وكنّا في حياةٍ، ثم تأتي الحياة بلحظةٍ
واحدةٍ جعلتنا نفترق ثم جمعتنا لنفترق
من جديد، لا أعلم كيف تظلمنا الحياة
هكذا، لم أعلم أنها ستتركني من دونك
كلّ هذا الموت (الوقت) سامحني يا
طبيبي لم أستطع حماية ابننا، لم أستطع
يا طبيبي.

- امسحي قطرات الألم تلك عن عينيك يا
حبيبتي ولا تبكي، ليس عليك حقّ إن
كانت الحياة قاسيةً لهذه الدرجة، لا أعلم
كيف سأحملُ هكذا ألم لكن ليس بداخلي
حزنٌ منك أبداً ثم أنت سامحيني لأنني لم
ألحق أن أكونَ موجوداً بقربك أنت وابننا
سامحيني يا حبيبتي لأنني داويتُ جروحَ
الحرب التي قتلت ابننا واغتصبتك.



- امسح عينيكَ وابتسم لي يا طيبي،
اشتقتُ لاقتسامِ السلطة مع الحياة في
ابتسامتك، اشتقتُ لارتسامِ الورود في
ابتسامتك، اشتقتُ لعينيكَ من غير دموع
ولصوتك من غير بحة الحزن تلك، لا
تحزن إن رحلت، أعلم أنك ستحزن
بالتأكيد لكن أرجوك لا تبقى في كوكب
الحزن كثيرًا لأن آخر ما تمناه بعد
الموت هو أن أرى حزنك أو أشعر به،
اعتني بنفسك يا طيبي بعد موتي ولا
تفكر يومًا أن غيابك كان سببًا بما حدث،
فالغياب هو السبب لكن الغياب ذاك هو
غياب الرحمة والقلوب في هذه الحرب
وليس غيابك أنت، غيابك يقتلني نعم لكن



ليس بالطريقة التي فعلتها الحرب لذلك
لا تحزن يا طيبي.

- حبيبك لم يعد له القوة أن يكمل الطريق
من دونك يا حبيبتني، أنا لست بطلاً في
فلم أو مسلسلٍ لكي أحمل كل هذا الألم،
وأنا لست نبيًا أو رسول، أنا شخص
عاديّ دُمِرتْ برويتك هكذا يا حبيبتني،
حبيبتني لا تقولي اعتني بنفسك بعد موتك
كيف أفعل ذلك؟ كيف أعتني بما تحت
التراب؟ حبيبتني، يا ليلاتي، من سيعتني
بي في غيابك، من سينتبه في وسط ألف
شخصٍ يتكلم أنني صامت؟ ويأتي
مسرّعًا تاركًا أحاديث الجميع في
منتصفها ليسأل عن حالي؟ من
سيصالحني حين نتخاصم؟ لم نكن



نتخاصم، كنا فقط ننظرُ لبعضنا بصمتٍ
ثم نعانقُ بعضنا، من سينادي لي في
صباحي كي أشربَ قهوتي الصباحية؟
من سيقبِّلني قبل الرحيلِ وبعده؟ من
سيرتبُّ لي آخرَ زرٍ في قميصي من
الأعلى؟ من سيرتبُّني قبلَ رحيلي يا
حبيبتي؟ من سيضرِّبني إن قلتُ له
سأتأخرُ قليلاً عن المنزل؟ لا يا حبيبتي،
ليستَ الحياةُ من أريدُ البقاءَ على قيدها
بل أريدُكِ أنتِ، أريدُ البقاءَ على قيدكِ
أنتِ يا حياتي، لا تتركيني في منتصفِ
السطر هكذا أبحثُ عن نقطةٍ كي أنتهي،
سنجتازُ هذا يا حبيبتي، لن ننتهي اليوم،
لن تنتهي قصتنا هنا.



- اهـدا يا حبيبي ولا تتكلم، فقط دعني
أنظرُ لك أرجوك، لقد قرأتُ رسائلِك كلها
وأبكتني الأخيرة منها كل الوقت حينَ
أقرأها كل لحظة، حبيبي إنها آخرُ
أنفاسي، استيقظتُ كي أُعطيك إياها، أنا
سعيدةٌ أنها ستنتهي بقربك، عيوني
فرحةٌ برويتك قبل أن تستقبلَ الظلام،
مازلتُ بقربك يا حبيبي وسأبقى هنا في
داخلِ قلبك، سأوقظك كل يومٍ وأنا أَلعبُ
بشعرِك الأشقر ذاك وأنظرُ لك، سأُقَبِّلُكَ
وأقولُ لك صباحَ الخيرِ كل يوم، سأشربُ
معك قهوتنا ونُغني أغنيتنا ونشتمُ
أزهارنا ونقبِّلُ ابننا كل يوم ثم أودِعُكَ
عندَ البابِ وأقولُ لك لا تتأخر وسأضربك
عندما تبتسم وتقولُ لي لا أعدك ثم



تضحك وتقول لي حسنًا، لن أدع رأسك
يرتاح مني ولا يوم، سأكون دائمًا
بجانبك كالملاك الذي لا يفارقك، وصيتي
الأخيرة لك هي أن تتزوج من بعدي،
وسمي ابنك باسم ابننا واعتني به جيدًا،
واعتني بنسمة، أحبك يا طيبي.

ثم أغضت عيناها كأنها ضربت الكرسي
من أسفلي لكي يخنقني حبل الحياة،
فبدأت بعدها يداي على وجهها ترتجفان
وعيونني تدمع، فأقول:

- ليال، حبيبتي، لا تنامي، استيقظي يا
نجمتي، لا تتركيني وحيدًا في هذه الحياة، لا
أريد الموت يا حبيبتي، حبيبتي هيا أعلم أنك
تمازحينني، حبيبتي افتحي عيني، أميرتي،
ليال، ليال صغيرتي لا تنامي.



الفصل السادس

الموت

نسمات الأدب

لنشر الإلكتروني



أمسكتُ بعدَ صفيرِ قلبها جهازَ الصعقِ
وحاولتُ أولَ مرةٍ، وثانيَ مرةٍ، والثالثةَ
حتى السابعة، فدخلتُ الممرضةَ ومعها
ثلاثةُ دكاترة ليبعدوني ويقولونَ لي:

- لقد ماتت لا يمكنكُ فعلُ شيءٍ، أرجوكُ اهدأ.

فقلتُ لهم: لم تمتِ مازال قلبي ينبض ابتعدوا
عني، ليالٍ حبيبتني لا تنامي، أيقظوها إنها
فقط نائمة، حبيبتني نائمة أيقظوها.

فقالوا لي: أنتَ طبيبٌ وتعلمُ أنكَ تكذبُ
على نفسك، اهدأ لا نريدُ أن نُعطيكَ
مخدراً، أرجوكُ اهدأ، أرجوكُ.

فهدأتُ بعدها وجلستُ أبكي جانباً وقلتُ:



- قتلوا حبيبتني، قتلوا حبيبة قلبي، قتلوا
وردتي، كل الآلام تزول إلا هذا الألم
سيبقى للأبد، هذا ألم لن يزول.

بدأت الآن مراسم الجنازة، الجنازة
ليست فقط على ليال بل على الحياة
بأكملها، حملت حبيبتني ثم ذهبنا جميعاً
ودفنتها بيديّ الاثنان ثم وقفنا أمام هذه
المأساة ونظرنا للناس بكل حزن وقلت:

- شكراً لكم على قتل حبيبتني، شكراً على
حمايتها في غربتي، لون الحياة أصبح
باهتاً، تسمح الحياة الآن بأن تتلون
بالأسود، فكيف أضفتم الأحمر بقتل
شهيدتي، حبيبتني الآن ماتت، الزهور
والورود المتفتحة حديثاً ماتت، أصوات
البلابل وضحكات الربيع الفرح ماتت،



تغريدُ العصافيرِ البيضاء ولهفاتُ الحبِ
والأنشيدِ وقصةُ كلِّ العاشقين ماتت،
السهول والجبال الواسعة، الغابات
والهضابُ الخضراء ماتت، الحقائق
بعدها ذهبت ورودها ماتت، كل شيءٍ
بموتِ حبيبتي ليالٍ مات، يمكنكم الآن
الاستمرارَ بجهلكم وبأسكم وظلمكم
وحقارةِ صدوركم، يمكنكم الآن الدخولِ
بواسطةِ فشلكم إلى النجاح والتفوقِ
المظلم، يمكنكم الحصولُ على شهاداتٍ
وامتيازاتٍ بما تفعلون لكن لن تخرجوا
من ذلك الكون المعتم، خذوا عيناى الآن
لم أعد أريدُ النظر، وما نفعُ البصر بعد
موتِ ما نرى في منتصفِ العمر،
أعطوني نظارةً سوداء وعصا سوداء،



لم يعد في داخل قلبكم نقطة من الصفاء،
ما عدتُ اشتهي بعد موت ليالٍ شيئاً،
سكارةً ومعزوفةً حزينةً وصورتها
ومهلًا، مهلاً بعدها مهلاً، انتظروا حتى
تنتهي مراسم جنازة الشهيدة ثم عودوا
إلى جهلكم فقد ماتت حبيبتي في نهاية
هذه القصيدة، لم أروي لكم عن تاريخها
فهي ملكة بابل القديمة، وهي الأعجوبة
الأولى من عجائب الدنيا السبع، فكيف
تفعلون هذه الجريمة؟ كيف تقتلون
ملكتنا التي من واجبنا أن نقف أمامها
احترامًا؟ فلا تأتي الحياة كل يومٍ بملكةٍ
مثلها عظيمة، أصبحت الحياة الآن
خارج نفسها، يمكنكم الآن أن تمارسوا
أدواركم الحقيقية وتوزعوا بينكم من



الجهلِ باقي القسيمة، هذه الحرب
مارست فنَّ القتل، وأول لوحة رسمتها
كانت حبيتي الشهيدة، رسمتها باللون
الأحمر في منتصف كل جريدة، رسمتها
على جدران المباني، على ورد الياسمين
ورائحة الشتاء، رسمتها في كل مبنى
وكل ميناء، حتى في الصحراء كانت
حبيتي هناك، حبيتي الشقراء كانت
منحوتة حتى في الحجر، مرسومة في
لوحة يعكسها على الأرض ضوء القمر،
لكل من لا يعرف حبيتي سأقول له قف
عند حدود الساعة الشتوية والصيفية
ستجد هنالك ساعة مخفية، أصبحت
ذكرياتي في تلك الساعة، فقد غابت
حبيتي وأنا في سني لم أتجاوز بعد



مرحلة العشرينية، فقد كنتُ صغيرًا على
تجاوزِ هذا السن رغم أن سنَّ الثلاثين
أكل من أعوامي ما كنتُ أسمىه
بالعشرينية، حبيبتي ليال يا سهرتي
وصباحي، يا كوبَ قهوتي في منتصفِ
صباحي، يا رائحةَ الفجر، يا من يأتيها
النحلُ في كل ربيعٍ عند بداية تفتحِ
الزهر، حبيبتي ماتت، أصبحت تحت
التراب، يا ورودَ الربيع لا تذبلوا،
فوصيئتها لكم هي أن لا تقطعوا الأرحام
وأن تستقبلوا الأحباب.

ثم نظرتُ إلى حبيبتي وقلت:

- ليال يا وجعي ويا وجعَ صوتي حينَ
الكلام، قتلوكِ يا حبيبتي قتلوكِ وجعلوني
يتيم القلب والأحلام، أصبحتُ أقولُ سلامًا



على روحك في بلد مات فيها السلام،
اكتبوا باسم الشهيدة أسماء المدارس
والجوامع والجمعيات الخيرية، اكتبوا
في كل مكان هنا كُسرَت المزهريّة،
وكانت تحمل بداخلها رماد الحياة كلها
والزهور فيها تنبتُ مزهرةً، الآن الورود
ذبلت وأصبحت مهترية، حبيبتى ليال، يا
كوكبي الراحل، يا قمري الذي قررَ
العودة إلى مكانه متخطياً أصعب المراحل
حبيبتى لازلتُ أسمعُ صوتك مع البلابل،
بعدما اغتالت الحرب أصوات البلابل،
مازلت يا حبيبتى في كل مكان، في
تغريدة الصباح، في قهوة الصباح، وفي
كل صباح، يا صباحي الليلي، يا فراشتي
مازلت على أزهارى، وكيف يا حبيبتى؟



كيف يقتلون الفراشة في حقلها؟ ليجعلوا
موتها حقلي، يا حبيبتني لا تنامي قبلي
فإني أعتبر اللحظة التي أرى فيها عينيك
قبل نومي مقدسة، فكيف يدمرون
المحرمات بقتلك يا غزالي؟ كيف يمشون
في جنازتك بعد قتلك ويسألوني بعدها
عن حالي؟ أصبحت أكره كنييتي فلا
تقولوا لي من أنا ونادوني بالإنسان
الخالي، فقد خلوت من قلبي ودفنته تحت
التراب، لعل قلوبكم ترتاح الآن وعقولكم
المستنزفة من عدم الجهل أصبحت في
وضعها المثالي، حبيبتني سأقرأ الفاتحة
كل يوم، فقبرك ليس هذا الذي دفنتك
فيه، وإنما جسداً أحمله إلى كل مكان في
داخلي، فسلام على قبر الشهيدة الحية،



وسلامٌ على موتِ العروبةِ وألفِ تحيةٍ ردٍّ
على من قتلها ألفَ تحيةٍ.

بقيتُ بمفردي مع قبرِ ليالٍ، أعانقهُ
وأخجلُ أن أبكي فوقَ قبرها، بقيتُ عدةَ
ساعاتٍ فوقَ قبرها حتى أتى الليل، فأتتْ
نسمةٌ لكي تأخذني وقالت لي:

- هيا بنا، لقد تأخرَ الوقتُ يا أحمد، لو
رأتكِ ليالٍ هكذا ستحزنُ كثيرًا، أرجوكِ
تعالَ معي، حتى إنكِ لم تأكلِ ولم تشربِ
شيئًا منذُ الصباح.

- لقد توقفتِ الوقتُ يا نسمة، ولم يعد
الأكلُ ولا الشرْبُ ينفعُني الآن، اتركيني
هنا وعودي إلى المنزل، أخافُ أن تبردَ
ليالٍ بمفردها هنا.



- لن أعود من دونك ثم إن ليالٍ أوصتك
أن تعتني بنفسك ولا يجب عليك خيانة
وصيتها إن كنت تُحبها.

- أكون قد قتلت نفسي إن خنت حبيتي
الشهيدة، إني أعتني بنفسي ببقائي هنا،
ذاتي تريدُ هذا يا نسمة.

- حسناً إن كان ليس من أجلك، فاذهب
معي من أجلي، فأنا أيضاً داخل وصيتها.

- لا أستطيع أن أنهيه لألمي يا نسمة لا
أعلم كيف أو هل سأجاوز هكذا ألم ليس
لي القدرة على الاستمرار لقد قتلتني
الحياة دون جرحي يا نسمة، قتلتني
بجسدٍ بقي فوق التراب وروحاً تحته، كل
الآلام كانت تزول بوجود حبيتي لكن
فقدانها هذا ألمٌ لن يزول ما حييت.



قالت لي نسمة وهي تُمسكني وتشدُّ عليّ
وتضربني:

- قِفْ الآن هيا، هذا ليسَ أنت، أين أحمد
الذي اجتازَ حربًا كاملة، وساعدَ الناس
في شفاءِ ألمهم، ونجا من الموتِ ليعودَ
لليال، أين هو؟

- الآن ذلكَ الأحمد يريدُ أن تعودَ ليالٍ له
لأنني كنتُ أفعلُ كلَّ شيءٍ لأجلِ ليالٍ،
الآن من أجلٍ من سأفعلُ كلَّ شيءٍ، لمن
سأعيشُ وأحارب، كيفَ سأتجاوز هذا
الألم يا نسمة؟ كيفَ سأعيش مع واقعٍ لا
يحتوي على ليالٍ؟

- ستفعلُ كلَّ شيءٍ من أجلِ الشهيدة،
الآن ستقفُ من جديد من أجلها، تحاربُ
وتعيشُ من أجلها، لن تتجاوز هذا الألم



بل معه سوف تعيش جميع مراحل حياتك
ستفعل كل شيء من أجل هذا الألم، لا
تطفئ حزنك بل حوله إلى غضب وقوة
تجعلك تقف من جديد، لتجعلني أرى من
جديد، أحمد العربي.

- حسناً، سأرحل معك لكن سأتي غدا
أيضاً، عديني بأن لا تبرد ليالٍ هنا يا
نسمة، عديني بأن تأتي باكراً.

- لم أعتد رؤيتك ضعيفاً هكذا يا أحمد
لكن أعدك، هيا بنا أرجوك، سنكمل باقي
حديثنا في المنزل.

ودعت قبر ليالٍ، قلت لها من بعد ألف
كلمة (لا تنامي):

- نامي بحفظ الله يا حبيبتي الشهيدة.



كانت نسمة في تلك اللحظة تخبئ
دموعها خلف ستائر عينيها من أجلي،
فقد سمعت بكائها أثناء الليل فدخلت
إليها وقلت:

- من يراك الآن لا يقول أن هذه الفتاة
هي نفسها التي كانت معي في المقبرة،
امسحي دموعك واروي لي ما حدث في
غيابي عنكم بالتفاصيل المؤلمة لا أريدك
أن تخبئي شيئاً عني، اشربي كوب الماء
هذا واخبريني بهدوء.

- عندما عُدنا أنا وفارس، أوصلنا فارس
إلى حدود المدينة ثم قرر العودة من
أجلك أنت وعلياء ولم يدعني أرافقه،
وبعد عدة أيام جاء إلينا في منزلك القديم
الذي أعطيته عنوانه قبل أن يرحل



سألتُه لِيالَ بكلِ حُزْنٍ وقالتْ لهُ:

- أينَ طبيبي؟ لماذا عدتَ فارغاً؟

قال لها والدمعُ في عينيهِ أنكَ استشهدتَ
إثرَ انفجارٍ حصلَ هناكَ لأنهُ رأى السيارةَ
التي كنتمَ بها أنتَ وعلياءَ محطمةَ
ومنفجرةَ في قربِ الموقعِ الذي كنا بهِ،
حينها وقعتْ لِيالٌ على الأرضِ واستمرت
بالبكاءِ، لم يتوقف بكائها لساعاتٍ طويلةَ
حتى تورّمت واحمرّت عيناها من كثرةِ
البكاءِ.

قلتُ حينها: آهِ عليكِ يا حبيبتي، حزنتي
على مَوْتِي الكاذبِ واستشهدتِ قبلي،
استشهدتِ موتًا حقيقيًا مؤلمًا، أكملِي يا
نسمة هذه الحكاية المؤلمة.



هنا قالت ما قتلني:

- أقمنا لك العزاء في ذلك الحين، وحينها بدأت الحرب هنا أيضًا لكن من كان هنا يقتل ويُدمر هم مجموعة من الإرهابيين العرب ثم في أحد الأيام دخلوا علينا، حاول فارس الدفاع عنا فقتل اثنين منهم لكنهم قتلوه بعد ذلك، خبأتني ليالٍ في داخل القبو وقالت أن لا أصدر صوتًا لكن في ذلك الحين كان ابنك قد بقي في غرفة أخرى، فقالت ليالٍ أنها ذاهبة لإحضار ابنها وستعود بعدها، وقالت لي أن لا أخرج مهما حصل ثم بعد عدة ساعات خرجت، فوجدت.

ثم صمتت نسمة وبدأت بالبكاء الشديد، وبدأت تضرب نفسها، بكيتُ معها وقلتُ لها:



- أكملني يا أخت حبيبتني، لا تتركي ألمي
في منتصفه، أكملني قتلي، أقسم بالله
العظيم أنني شعرتُ بآلمها وأنا بعيدُ
عنها، حتى أنني رأيتُ منامًا كانت
تودعني به حبيبتني لكنني تصورتُ أن
هذا لن يحصل، وإن حصل سأكونُ أنا
الراحل عن هذه الدنيا حينها لا هي لكن
الأحلام ليست كالواقع، الواقعُ أشدُّ ألمًا،
أكملي يا نسمة.

- وجدتُها في حالةٍ يرثى لها، مرميةً
على الأرض تعانقُ ثيابَ وحيدها الذي
اختطفوه ثم قتلوه ولم تلحق أن تخبئه
معي، وكان الدم يخرجُ منها من كل
مكان من كثرةِ الضرب والتعنيف الذي
تعرضتُ له، غابت بعدها عن الوعي ثم



أخذناها بمساعدة بعض الناس هنا إلى
المشفى وبقيت هناك، وأول شيء فعلته
حين استفاقت البكاء لكن استيقاظها لم
يكن طويلاً حتى غابت عنه مجدداً، ليتك
كنت هنا لتتقذ أختي من الذي حدث لها
يا أحمد.

- لم ألق يا نسمة وهذا الألم سأعيش
معه ما تبقى من حياتي، أخبريني أين
دفنتم ابني وفارس يا نسمة ثم وضّبي
أغراضك لكي تذهبي غداً إلى عمك
خارج البلاد لم أعد أؤمن وجودك هنا.

- حسناً لكن خذ هذه المسبحة، إنها الشيء
الوحيد الذي بقي من فارس قبل أن يقتلوه
هوؤلاء الذين لا يخافون من الله.



- أبقِها معكِ يا نسمة، أنا متأكد أنك
أكثرُ أحدٍ يريدُ فارس أن يبقى معكِ ما
تبقى منه، حافظي عليها وادعي لفارس
في كل مرةٍ تمسكينها.

- لماذا أنا يا أحمد؟ أنتَ صديقه وأخاه!

- نعم يا نسمة، أنا كذلك، صديقه وأخاه،
لكنكِ الفتاة التي أحبها فارس يا نسمة،
وهذا أكثرُ شيءٍ كان يودُ أن يقوله لكِ
فارس عندما نجتمع، أنا آسفٌ لأنني
أخبركِ بذلك الآن لكنني وعدتُ فارس
بذلك، ووعدُ الحر دين يا نسمة، هيا
اذهبي وارتاحي قليلاً، لديكِ مشوارٌ
طويلٌ لتسلكيه غداً.

في اليوم التالي غادرتُ نسمة ثم جهزتُ
نفسي من جديد لأذهب وأودعَ حبيبتي



ليالٍ وابني وفارس لأنني قررتُ العودة
إلى مدينة ليالٍ بعد القليل من الزمن،
ومعالجة الواقع هناك، فقد تدمرَ واقعي
هنا، على طريقي جلستُ قليلاً ادعو الله،
فقلت:

- يا الله، أنت الملجأ لمن ليس له، أنت
ملاذ قلبي الجريح، أنا راضٍ بقضائك يا
الله، أعني على فراقٍ حبيبتِي، أمدني من
عندك بالصبر، ألهمني الصبر على
الفراق، واجعل حبيبتِي الشهيدة في
جنائك وارحمها واجمعني معها في
أيامي القادمة، اللهم إني فوضتُ لك جلَّ
أمري وكله فاجعل لي قوةً تعينني على
أيامٍ خلت من ليالٍ، ألهمني الصبر على
الفراق، اللهم صبراً جميلاً وأنت



المستعانُ على ما أصابني، اللهم لا
أرجو منك خفةَ الحمل فهذا حملٌ ثَقِيلٌ،
إنما أرجو منك قوَّةَ الظهر والقلب،
أعطني طريقًا يقويني، يا ربي جميعُ
الطرقَاتِ دونك ضلالٌ، وطريقك أنت
الملجأ لكل تائه، خابَ من ضلَّ عنك،
وفازَ من اتخذك معيَّنًا نصيرًا، فأعني
وانصرني يا الله، فإنني متعبٌ طرقْتُ
بابك راجيًا، وما خابَ من طرقَ بابك يا
الله، يا الله.

وصلتُ إلى قبرِ حبيبتي ليال:

- مرحبًا يا حبيبتي هذا أنا مرةً أخرى،
جئتُ لأودعُك يا حبيبتي إن كنتِ لا
تمانعين، أعرفُ أنكِ لا تُمانعين وجودي
لككِ ثمانعين رحيلي، لا تخافي سأبقى



دائمًا هنا بقربك يا حبيبتي، والآن قولي
لي هل تشعرين بالبرد في منزلِك الجديد،
سأضعُ الجاكيتَ الذي أهديتني إياه في
آخر عيد ميلادٍ لنا عليكِ الآن، لن تبردي
بعد الآن يا حبيبتي، أنا سأبقى بقربك
دائمًا، أنا آسف يا قمري لأنني تأخرت،
هل يمكنُ للطبيب أن يعالجَ من أصبحوا
تحتَ التراب، ليتني أستطيعُ يا قمري، ما
نفعي الآن يا حبيبتي وأنا لم أستطع
الالحاقَ بكِ، أعرفُ أن كلامي هذا
يُزعجُكِ، وأن هذا حكمُ الله لا اعتراضَ
عليه، حسنا سأصمتُ يا حبيبتي،
سأعانقُكِ الآن فقط، ربما أبقى عدة
ساعاتٍ، لن أكتفي يا حبيبتي، سأشتاقُ
لكِ في كل لحظةٍ أفكرُ فيها أنه حانَ عليَّ



وقتُ الذهاب، سامحيني يا قلبي إن كنتُ
 في كل ليلةٍ أتكلّمُ عنكِ في ظهركِ لأنني
 اغتبتكِ مع صورتكِ كثيرًا، مع أوراقِ
 الشجر والورود والنجوم والقمر، دائمًا
 كنتِ تتاديني بطبيبي لكنكِ أنتِ من كنتِ
 طبيبتِي يا ليالٍ، كنتِ تداويني من جميعِ
 ما بي من حزنٍ وتعبٍ وكل شيءٍ، كنتِ
 تشفي قلبي من الحياة، تداويني بطريقةٍ
 لم أتعلمها في جميعِ مناهجِ الحياة،
 تعطيني الدواء لكلِ أمراضٍ بوصفةٍ لم
 أعرفها رغم أنني من أكبرِ الأطباء في
 البلد، كانتِ يداكِ تعزلني عن الحياة حينَ
 تلامسُنني، وتسرقني عينيكِ من متاهةِ
 التفكير التي كنتُ بها لتريحَ عقلي من
 الألم، الآن أعطني هذا الدواء يا حبيبتي،



لا توجد صيدلية في هذه الحياة تحوي
عليه، لا يوجد أحد يعرفه أو يعرف
تركيبته سوى يداك، كيف سيطيب طبيبك
الآن يا حبيبتي؟ كيف سأعيش ما تبقى
من هذه الحياة دون لياليها، ستتعبني
الشمس كثيرًا يا ليال، سأبقى أنظر
لجانبى الفارغ منك متخيلاً أنك هنا، رغم
أن هذا سيؤلمني أكثر في الوقت لاحق
لأن الخيال لا يدوم لكنني سأخدع نفسي
بذلك، سأحاول عدم تصديق كل شيء،
سأجعلك هنا بين يدي وأعانقك حتى
تعصرني يدي، سأشد بقوة أقتل بها
عناقي الأخير هنا، سأرمي عيني إلى
داخل قبرك لتبقى على قيد البصر،
سأعيش بروحين الآن، سأحمل روحك



معي في كل مكان ثم سأعود وأزورك
مجددًا ومجددًا، ومجددًا، ولن أنتهي من
هذا حتى أنتهي، سأذهب إلى ابنتنا الآن
يا حبيبتي، أبلغيه سلامي من عندك
وقولي له أن والده قادم، سيتأخر في
العمل قليلًا فقط، سأذهب الآن إليه يا
ليال، لقد اشتقتُ له كثيرًا، الوداع يا
قلبي، نامي بحفظ الله يا حبيبتي.

زرتُ قبر ابني الذي يبعد مسافة عشرين
قبر عن حبيبتي، لا أعلم أين جسده لكن
قبره هنا، ثم زرتُ فارس بعدها، بقيتُ
عدة أيام في تلك المنطقة أزور القبور
كل يوم، لكن في أحد الأيام أثناء جلوسي
بجانب قبر حبيبتي أتى شخصان إلى
هناك، جلسوا بالقرب مني، لم يتكلموا



شيئاً لكن هذا لم يطل كثيراً حتى قال
أحدهم للآخر:

- اسأله ماذا يفعل هنا.

وعندما سألني لم أجد جواباً داخلي لأرد
به عليه، لم أجب، ضحكوا حينها، وقالوا
لي حينها:

- اسمع، لا يهمني من الذي رميته في
تلك الحفرة، كل ما يهمني هو المال،
أعطني المال قبل أن أجعلك تنام بجانب
من في تلك الحفرة.

- أتعلم أكثر شيء أريده هو النوم بجانب
من في ذلك القبر لكن كأتني أشعر أنك
تستهزئ بأمر هو أكبر منك بكثير.

ضحك حينها وقال لي:



- هل تمزح معي أيها الغبي؟ أعطني
المال وسأدعك وشأنك، وإلا سأضع
رأسك على الأرض ثم سأقبل فوق هذه
الحفرة الغبية.

كانت جملته الأخيرة التي قالها سبباً
لجعلني أقتله هو وصديقه وفعلت ذلك
بسرعة لكنني توقفت بعدها اكتفيت
بضربهم، كنت قد امتلكت مهارة قتال
تدربت عليها حين أحد رحلاتي إلى
الصين لكنني لم أقاتل أحد منذ تزوجت
ليال لأنها كانت السلام الذي حل بحياتي
وجعلني أصرف اهتمامي عن القتال
وكيفيته، والاهتمام فقط بليال وابني
ومساعدة الآخرين، والعيش في آخر
جملة قلتها، حينها في تلك اللحظة



سمعتُ صوتَ تهَيئةِ سلاحٍ خلفي وأحدهم
يطلبُ منا أن نرفع أيدينا ولا نتحرك،
نظرتُ إليهم فإذا بهم جنديين وقائدهم
معهم، طلبتُ منهم الهدوء وأخبرتهم من
أنا وماذا أفعلُ هنا ولماذا ضربتُ هؤلاء
الاثنين، طلبَ من جنوده قتلتهما لكنني
رفضتُ ذلك لكنه كان مصممًا على ذلك
فقلتُ له:

- إن كان هذا أمرُك حسنًا لكن ليس هنا، رجاءً.

وافقَ على ذلك حينها وجلسَ بقربي
وسألني عن حكايتي، أخبرتهُ بها، كانت
قصةً جعلتنا نبكي نحنُ الاثنان، قصتهُ
أيضًا أبكتني فقد أخبرني بها وهي:

- أنا اسمي كنان من عائلةٍ غنيةٍ جدًا، أنا
الابنُ الوحيدُ لتلك العائلة، وأن حلمي



الذي حملته معي منذ صغري هو أن
أصبح ضابطاً أخدم وطني، بينما حلم
والديّ هو أن أصبح طبيباً أو مهندساً في
مجال ما، هل خلقنا لنحقق حلمنا أم
لنخونه؟ جوابُ هذا السؤال جعلني أخرج
عن طوع والديّ وأذهب لحلمي، هذا
السبب البسيط جعلهم لا يكلمونني منذ
سنوات، هل يستحق الأمرُ هذا الوقت؟

- ألم تحاول أن تكلمهم أنت طيلة هذه الفترة؟

- لم أملك قوةً لفعل ذلك، أو ربما لم
أستطع فقط.

- لم تخطئ حين اخترت حلمك يا أخي
لكنك أخطأت بالسماح للوقت بأن يجعلك
تغفل عن التكلم معهم، أظنك حين تدخل
عليهم بهذا الزی وتقبل أيديهم



سيسـتقبلونك بسرعة، وسترى لهفتهم
حينها تزين وجههم.

- هذا أول أمرٍ سأفعله حين تنتهي
الحرب يا أخي بإذن الله، إنها تمطرُ
بغزارةٍ اليوم، كان اليوم الذي فارقتُ به
والدي ممطرًا أيضًا لكن لم تكن السحاب
مصدرُ ذلك المطر حينها بل كانت عيني.

- هل تعلم أن شهرَ آذار المكون من
واحدٍ وثلاثين يومًا يُدعى بهذا الاسم في
العراق وبلاد الشام وأصلُ تسميته بابلي،
وأنه كان شهرًا مكرسًا للآلهة آشور،
وهو مشتق من كلمة هدر لما يحدثُ به
من عواصفٍ وأمطارٍ وهدير.



- أرايت يا صديقي؟ هذا سبب آخر
منعني من الدراسة، هيا بنا لنذهب إلى
مكان آخر نتدرى به من المطر.

بعض اللحظات تصنع تاريخاً لا ينتهي
من الألم، أحد هذه اللحظات كان موتك يا
حبيبتي، ربما هذه اللحظة جمعت كل
اللحظات معها، وجاءت بضربة واحدة
تقضي على قلبي، وتعيق خطوات نبضه
التي لم تستقم بشكل تام ولم تبقى كما
كانت، إنها تمطر بالخارج والداخل يا
حبيبتي، قطرات ترميها السماء،
وقطرات ينزفها قلبي، ربما في هذه
الحياة آلام كثيرة لكنني لم أتوقع أن
تجتمع لحظة واحدة، بدفعة واحدة،
صدمة واحدة أزالَتْ شعار السلام،



برصاصةٍ واحدةٍ فقط، قتلت جميعَ ما
كنتُ أحلمُ به، طلبتُ من كنان هنا أن
أذهب لإلقاء السلام على ابني وفارس،
وتوديعهما قبل ذهابنا فربما نبتعد من
هنا، بعدها ذهبتُ إلى قبرِ ابني، بعدَ عدةِ
ساعاتٍ من عناقِ حبييتي ذهبتُ إلى قبرِ
ابني الصغير، ها أنا على بابِ منزلك يا
عصفوري الصغير:

- مرحبًا يا صغيري كيفَ حالك؟ ألم
تشتاق لوالدك؟ اعتدتُ أن تقفزَ على
صدري في لحظةِ رؤيتك لي يا حبيبي،
أينَ من يستيقظُ من النوم لكي ينامَ
بجانبي، أينَ من لا يشعرُ أنه بخيرٍ إلا
عندما يراني، كنتُ أنا أيضًا لا أشعرُ
بذلك إلا عندما أسمعُ صوتك يا صغيري،



كانت أمك تغارُ منا عندما تراك في
حضني ونضحكُ سويًا، الآن أنا أغارُ
منكما، لا أعرفُ كيف لهم قلبًا أن يقتلوا
ملاكًا صغيرًا، لا أعرفُ ماذا أقولُ عن
الذين قتلوك يا ملاكي الصغير، ليس لي
القوة سوى أن أقولَ كلمةً واحدة وهي
أنني اشتقتُ لك أيها الشقي، قتلوك يا
حبيبي، لا أعرفُ كيف يقتلون مهرًا
صغيرًا همه في الحياة فقط أن يلعب
ويبقى في أمان، لم تكن الحياة آمنة يا
حبيبي، لكنك الآن في أمان بين يدي
والدتك وفي أمان الله، نم بحفظِ الرحمن
يا حبيبي، وسامحني لأنني تأخرتُ أن
أعانقك قبل رحيلك يا صغيري، سأشتاقُ
لك يا حبيبي، وداعاً.



ذهبتُ بعد ذلك إلى قبرِ فارس، وعندما وصلتُ إلى هناك جلستُ بجانبِ القبرِ وابتسمت، هذه أكثرُ ابتسامةٍ حزينةٍ يمكنُ أن ابتسمها وأنا بجانبِ قبرِ صديقي القديم، قلتُ له:

- مرحبًا يا صديقي، لقد وصلت، ها أنا هنا، أنت أيضًا رحلت يا صديقي القديم! هل مكتوبٌ على شخصٍ مثلي أن يُصبحَ صديقًا للقبور؟ أعرفُ أنك رحلت لكي تسبقني إلى الحياةِ يا فارس فإنك لا تحبُ الموتَ مثلي لكن كيفَ حالكَ هناك يا صديقي؟ هل تنصحنِي بالقدومِ إليك، لا داعيَّ لأن تنصحنِي، الحياةَ قامتِ بالواجب، بأسُننا أننا في مكانٍ يتطورُ بالتقدمِ للخلف، أنا ليسَ لي القدرة على



الكلام يا صديقي، لو أنك هنا لقلت لي لا
تتكلم، فالكلام أصبح صمتًا بالنسبة لنا،
وهل ينفعُ الكلام بعد موتكم يا صديقي،
لا أعرف كيف يقتلون الفارس الذي كان
يحميهم من البرد والجوع في منتصف
البرد والجوع، أنا سأذهب الآن يا
صديقي القديم اعتني بمن رحلوا معك،
سأشتاق لكم لكن ليس لي حيلةً لفعل
شيء سوى الصبر، نعم بحفظ الله يا
صديقي القديم.

بعدها خرجنا من هناك، ووضعنا الطريق
في وجهتنا، أثناء سيرنا طلب كنان منا
التوقف جانبًا والصمت لأنه شعر بحركة
غريبة، اختبأنا حينها في أحد المنازل
المجاورة ورأينا سيارةً فيها بعض



الجنود توقفت قريباً من هنا، كانوا يتحدثون باللغة العربية، همستُ لكنان وقلتُ له يبدو أنهم عرب لماذا لا تظهر لهم؟ أخبرني أنهم مجموعة تابعة لمنظمة إرهابية جاءت واستوطنت هنا، قتلت، خطفت، سرقت وشردت الكثير، هؤلاء الناس الذين يجب أن نحمي وطننا منهم قبل الجميع، هنا قلتُ له:

- هل من الممكن أن يكونوا هم من فعلوا هذا بحبيبتى وابنى؟ سأقتلهم جميعهم.

هنا خرجتُ لهم وأطلقتُ عليهم الرصاص وقتلتُ منهم اثنان ثم شدني كنان إلى الأسفل ودارَ بيننا اشتباك انتهى بنصرنا عليهم، بقيَ أحدهم حيّ، قمتُ باستجوابه حينها عن مكان بقيتهم وجميع الجرائم



التي فعلوها، هنا حدث الأمر الذي
فاجئني حيث أنه أخبرني أنهم يقتلون
الرجال، ويغتصبون النساء ويختطفون
الأطفال، هنا شعرت بأن ولدي حي،
سألته أين ولدي فأخبرني أنه لا يعرف
ولدي لكنه يعرف المكان الذي تختبئ
جماعته به وبأنه متأكد بأن ولدي هناك،
طلبت من كنان الذهاب وحدي لكنه
رفض ذلك، أخذنا سيارتهم، أرشدنا
جنديهم إلى مكانهم وعند وصولنا قام
كنان بقتله كي لا يغدر بنا، حاولنا أن
يدور الأمر بهدوء لكنه تعقد قليلاً
وانتهى بشباك دار بيننا وبينهم وقتاً لا
بأس به، انتصرنا حينها عليهم لكننا
خسرنا جنود كنان الاثنين وتعرض كنان



للإصابة في كتفه، أسعفته بسرعة حينها
ثم دخلنا معًا للداخل، فتحتُ بابًا حديدًا
كبيرًا وجدتُ مئات الأولاد داخلًا، ركضوا
جميعهم باتجاه الخارج، صرختُ لكنان
أن يبحثَ معي عن ابني ثم قال وهو
يبحثُ:

- توقف أنا لا أعرفُ ابنك يا صديقي.

أخبرته عن مواصفاته ثم صمتُ فجأة.

- وجدته ... هذا ما صرختُ به حينها.

وجدتُ الحسن ركضتُ إليه عانقته
وعانقتي، بكى كنان هنا أيضًا من شدة
تأثره بالموقف ثم طلبَ مني أن نذهب
بسرعة قبلَ أن يأتي أحد آخر منهم،
خرجنا من هناك أنا، ابني، كنان وأخذنا



شهدائنا معنا وأكرمناهم بدفنهم ثم ذهبنا
إلى حبيبتَي ليالٍ، كان يجب أن أريها
ابننا وأني قد لحقتُ به، أن الله سبحانه
أهداني سبيلًا للحياة بعد أن تركتني الحياة
وذهبت، عند وصولي إلى هناك، سبقتني
دموعي إلى ليالٍ.

- حبيبتَي أعلم أنني ودعتكِ لكنني عدتُ
من أجلكِ، انظري حبيبتَي، هذا ابننا
الحسن، لم يذهب معكِ يا حبيبتَي، لم
يرضى أن يترك والده وحيدًا، جاء
لينقذني من الموتِ بعدم موته، انظري يا
ابني هذه والدتك هنا، ألا تريدُ إلقاء
السلام عليها.

عانقنا قبرها معًا، اجتمعنا من جديد لكن
التراب فصل بيننا لكنني أعلم أننا في



يومٍ ما سنتجاوزُ ذلك الفاصل ونجتمعُ
معاً من جديد، طلبَ مني كنان الإسراع
قبل أن يأتي أحد بعد ما فعلناه، هنا
ودعتُ حبيبتي ليالٍ ووعدتها أنني
سأحمي ابني بكل ما أملك من قوة،
سأدعو الله في كل ليلة أن يقويني على
ذلك، وسأجعلُ حياتي رهينةَ هذا الأمر.

- وداعاً حبيبتي، وداعاً ليالٍ.



الفصل السابع

لا زالَ هنالك وداع

نسمات الأدب

نشر الإلكتروني



ابتعدنا قليلاً عن هناك ثم اختبأنا في منزلٍ على طريقنا كي نأخذَ القليلَ من الراحة، ظننا أننا سنأخذُ ذلكَ الفاصلَ المؤقتَ من الراحة لكنه كان معاكساً لظننا يأخذُ منحىً معاكساً يجعلنا نتعلقُ من جديدٍ بتلكَ القشة لعلها تنقذنا من الغرق هذه المرة، وجدنا بعضَ الطعام في ذلكَ المنزل، ارتحنا مدةً لا تزيدُ عن النصفِ ساعة حتى سمعنا صوتاً من الخارج، نظرَ كنان من خلفِ الستار فوجدَ بعضَ الجنود في الخارج، أخبرني أنه يجبُ أن نخرجَ من هناك في الحال، خرجنا من البابِ الخلفيِّ لذلكَ المنزل لكنهم شعروا بنا عندما انطلقنا بالسيارة، لحقوا بنا، استطاعَ كنان أن يُضيّعهم بعدَ



مطاردةٍ دامت حوالى السبعة وعشرون دقيقة لكن السيارة توقفت بسبب فراغها من البنزين، توجّب علينا المشي حينها، حملتُ ابني على ظهري وسرنا لكن التعب كان له حصةٌ منا، فأخذنا منزلًا آخر لنستريح به لكنه لم يكن فارغًا بل يسكنه رجلٌ يبلغ من العمر قرابة الخمسين عام، تعرفنا عليه وطلبنا منه أن يستضيفنا قليلًا بينما يهدأ البحثُ عنا كان الرجل بغاية اللطف لكن كنان أخبرني بأنه لم يرتح لذلك الرجل لكننا تأملنا العكس ثم جلسنا قليلًا في داخل أحد الغرف التي طلب منا أن نستريح بها هذا الرجل، بيني وبين نفسي لم أستطع النوم، فكرتُ قليلًا، أخذتني



ذاكرتي قليلاً إلى خارج تلك الدائرة التي
نحنُ بها، فوصلتُ إلى تفكيرٍ بين داخلي
وخارجي، شعرتُ من خلاله بأنني كنتُ
أكبرُ بالعمرِ للخلف، إلى لحظاتِ الماضي
تلك، تزدادُ تجاعيدي خارجياً، وتتفككُ
داخلياً، أعودُ بذاكرتي إلى لحظاتٍ لا
يمكنُ نسيانها بتلك السهولة لكن لا بأس
حتى شيبُ شعري كان تغيراً طبيعياً لأن
داخلي مازال متولناً بليالٍ (الحياة)،
نظري للخارج أصبح أقل حدة لكنني من
الداخل مازلتُ أرى حبيبتي بوضوح بين
حقول الزهرِ تلك ترقصُ تمسكُ الشمس
بيدها والقمر والنجوم بعينيها، أما عن
سمعي فإنه يبدأ بالصمتِ حتى انتهاء
يومي، عند ذهابي لفراشي ووضع



رأسي على المخذة أستعيدُهُ، لأسمع كل شيءٍ من جديد في لحظةٍ واحدةٍ تنتهي عند حلول الصباح كحالي الآن لكن المؤلم أن ذلك الصباح لن يأتي بعد الآن، مشيتي أيضاً أصبحت أثقل لكنني مازلتُ أركضُ من داخلي إلى حبيبتِي، أما عن قلبي، هنا توقفتُ قليلاً وهدئتُ لأنه حتى الآن حيٌّ عند لحظةٍ معينة يُعيدُ تكرار ذاتِ الخط والرنة، نعم، هذا ضياع التفكير الذي أعاني منه، الأمرُ الأصعب الذي لا أعلمُهُ هو هذا السؤال:

- كيف يكبرُ المرءُ بسنينٍ كثيرةٍ دون أن يتقدم الوقت لحظةً واحدةً؟!!

رغم كل شيء فأنا أجهلُ هذا، ربما لأنني لا أريدُ تعلمَ ذلك، أو ربما لأنني فقط لا



أقوى على تصديق ذلك، أو الاثنين يا
حبيبتي، أو الاثنين.

أخرجت صورة حبيبتي حينها، ونظرتُ
لها، سمعتُ كنان حينها يسألني:

- هل اشتقتَ لها؟

- وهل يقبلُ واقعي المولم ذلك لكنني
رغمًا عنه فأنتني اشتقت، اشتقتُ
لتفاصيل صغيرة تخطرُ لي الآن وأندمُ
على عدم استغلالها، أفكرُ بيني وبين
نفسي قليلًا، لماذا؟ لماذا كنتُ أنام
وبجانبي حبيبتي؟ لماذا لم أستغل ذلك
الوقت بالنظرِ لها، بحضنها وتقيلها،
لكنني لم أعلم أنني سأصلُ إلى هذه
المرحلة، الأمرُ يا صديقي يشبهُ أن
شخصًا كان أمامه جميعُ أنواعِ الطعام



لكنه لم يُنهي أطباقاً كثيرة تذكرها عندما
قتله الجوع.

- اهدأ قليلاً يا صديقي إنه القدر، قل الحمد لله
فقط، احمد الله أنا وجدنا الحسن، سبباً يجعل
قلبك ينبض مرةً أخرى.

- الحمد لله يا صديقي، صدقتني أنني أحمد
الله في كل ثانية على ذلك لكن التفكير
بأن حبيبتي رحلت يقتلني، في كل لحظة
أنظرُ لابني أتذكر والدته أكثر، حتى
عندما أنظرُ لنفسي، هل تعلم ما الذي
أتمناه يا كنان؟ أتمنى لو استطعت سرقة
يومٍ واحدٍ من الحياة، فقط أفكرُ بأنني لو
استطعت سرقة يومٍ من الحياة لاستيقظتُ
في لحظتها وأحضرتُ صورة حبيبتي
وحولتها إليها واحتضنتها بدلاً من



صورتها، وجهزت لها قصائدي وكلماتي
على وجبة الغداء، لأمسكت طيور
حديقتي وأعدت لها الحياة وجعلتها تغرد
فوق أزهار حديقتنا، لكن لن يكفيني
أيضاً لأن اليوم في وجودها يوم، وفي
بعدها ألف يوم، لكن لا بأس بتلك
اللحظات يا صديقي رغم ذلك، حتى
القليل من الحياة تُنجي قلبي من الموت
قليلاً، وهذا اليوم سيكون صعة
الكهرباء التي تعيد لقلبي النبض فيه
لتؤجل موتي لليوم التالي لكنني سأموت
حينها مبتسماً لأن حبيبتي ليال ستكون
نهاية يومي الذي كان ينبض فيه قلبي.

- وهل يبتلئ الإنسان إلا فيمن يحب،
اصبر يا صديقي، وخذ بقية الحياة طريقاً



تبني به مستقبلاً لابنك كي يصبح طبيباً
ناجحاً مثلك بإذن الله، واترك عتبة
الماضي، لا أقول لك انساها لكن تجاهل
التفكير بها قليلاً لتتجو.

- بإذن الله يا صديقي، كان! هل تسمع
صوتاً من الخارج مثلي؟ انظر من النافذة
كأني سمعتُ صوتاً.

- نعم هناك شخص يقف بالخارج وهو
مسلح أيضاً، قلتُ لك أنني لا أثق بهذا
الرجل، يجب علينا أن نسبقهم بخطوة
قبل أن يفعلوا ذلك، هيا بنا لنخرج دون
أن نشعر ذلك الرجل بأي شيء، أيقظ
ابنك واتبعني.

خرجنا بعدها من الغرفة، ومشينا بهدوء
لنخرج من الباب الخلفي، لا أعرف كيف



عرفَ كنان بهذا الباب لكنه الباب الوحيد
الذي يمكننا الهربُ عن طريقه الآن،
بعد خروجنا بقليل سمعنا صوتًا من
المنزل اختبأنا في مكانٍ قريبٍ منه، رأينا
بعدها سيارتان مليئتان بالجنود توقفت
عند ذلك المنزل، دخلوا إلى الداخل قليلًا
ثم خرجوا ورموا بذلك الرجل على
الأرض، سمعته يقول لهم بأنه لم يكذب
عليهم وأننا كنا هناك بالفعل ولا يعلم أين
ذهبنا، لكنهم ضربوه حينها وبزقوا عليه
ثم أطلقوا رصاصةً في رأسه وذهبوا
بعدها، سألتُ كنان بعدها ما الذي سنفعله
فقال لي:



- سنعودُ إلى ذاتِ المنزل، بالتأكيد لن
يشكوا بأننا هنا بعد هذا الذي حدث، هيا
يا صديقي لكن بهدوء.

- كنان يجبُ علينا أن ندفنَ هذا الرجل
حتى وإن كان خائناً لنا لكن لا نعرفُ
سبب فعله ذلك، ربما هددوه بعائلته أو
بشيءٍ آخر وربما يكونُ منهم رغم أنني
لا أظنُ ذلك لأنهم فعلوا به هذا، بغضِ
النظرِ عن كل شيء، أشعرُ بأننا يجبُ
علينا دفنه.

- لكن يا صديقي ربما هذا يكونُ سبيلاً
يجعلهم يجدوننا.

- لا أعلم يا صديقي، ربما نعم، ربما لا،
الأولى فرمما يظنونُ أن الكلاب نهشته،
أو أننا هنا، والثانية ربما لن يمروا من



هنا بعد الآن، لذلك هل ستساعدني بهذا
أم لا يا صديقي؟ أشعرُ بأنك ستفعلُ ذلك.

- وهل يمكنني أن أكونَ عكسَ ما تشعُرُ
به؟ هيا أيها الطبيب طيبُ القلب، ربما
فعلَ شيئاً حسناً في حياته هذا الرجل
حتى جعلَ الله له من يدفنه.

- ربما يا صديقي، ربما.

- إن قلتُ تلكَ الكلمة مرةً أخرى سأفجرُ نفسي
بك يا صديقي لأنني أكرهُ كلمةَ ربما، أشعرُ
بتأنيبٍ في سمعي عندما أسمعها.

- تأنيب! حسناً يا صديقي هيا لنكمل
عملنا، لن أكررها أعدك أيها الضابط.

بعد أن قمنا بـدفنِ الرجل، دخلنا إلى
منزله لنأخذَ قسطاً من راحة الحياة،



القسطُ الذي كان دينًا علينا ووجب
تسديده لاحقًا، أكلنا خبزًا يابسًا مع
بضعة حباتٍ من البطاطا المسلوقة ثم
ذهبنا لكي ننام، هذه المرة أصابنا النوم
دون مزاح الحياة بإيقاظنا لكن الأحلام
الناقصة من واقعنا تكفلت بذلك الأمر،
قبل النوم قمْتُ بفعلي المعتاد والذي هو
النظرُ إلى صورة حبيبتي، الأمر الذي
جعلَ كنان يقولُ لي:

- نم قليلًا، يجبُ أن ترتاحَ يا صديقي.

- جميعُ الناسِ ترتاحُ بالنوم وإغماضِ
عينيهما إلا أنا، أرتاحُ فقط عندما أفتحُ
عينيَّ وأرى حبيبتي ليالٍ أمامي.



- شكرًا لك يا أحمد، شكرًا أنك أثبتت لي
أن الحب لا يزال موجودًا ولم يمت بعد
اعتقادي بأننا دفناه منذ زمنٍ بعيد.

بعد ذلك نمنا، وذهبت بي الحياة قليلًا إلى
مكانٍ تمنيتُهُ واقعي لكن ليس كل ما
نتمناهُ نحصلُ عليه، هذا قانون الحياة
حين تحاربك، رأيتُ حبيبتي، عانقتها:

- ليالٍ أخبريني، لماذا؟

- حبيبي لا تتكلم دعنا نرتاح قليلًا،
عانقتي فقط لأنني رأيتُ كثير من
الأشياء السيئة لكنني لم أرَ شيئاً أسوأ من
غيابك.



عانقتُ حبيبتي وأخبرتها بسري الذي
أخفيته عنها، فهنا طلبتُ من الغياب قليلاً
أن يرحل، وأخبرتُ حبيبتي:

- هل تعلمين؟ في البداية كانت
مخططاتي راسيةً في بحرٍ مستقبلي الذي
كان يحملُ في جوفه أحلامي لكن لم
تكوني بينها، لم تكوني وجهتي يا
حبيبتي، لم تكوني رغبتي، لم تكوني
أحلامي ولا أمنيّتي، ولا من تملئين
مخيلتي حتى، لكنها بضعة لحظاتٍ أزالته
الجزم ووضعتني في موضع الرفع
والسكون لتصبحين كل شيء أريده
بفارغ الصبر أن يأتي، لتصبحين حياتي،
صديقتي، جنّتي على الأرض، عائلتي،
قمري وليّتي، لكنك الآن ذهبت، وكنتُ



أنا طائرًا أحب سمكة، وغصتُ إلى جوفِ
البحر للعيشِ معكِ لكن القدر أخذكِ، فلا
عدتُ أستطيعُ الطيران، ولا عادت
أجنحتي تحملني ضمن الماء.

- اسمع، دعّ عنكِ ثقل الأيام وعانقتي، هيا.

- لكنكِ ستختفينِ مجددًا ومجددًا حتى
يبردَ جوفي من قلةِ العناق.

- لا تقلق بشأنِ هذا، عندما تبرد
ستجدني هنا يا طيبي.

- أنا أشعرُ بالبردِ دومًا عندما تكونينِ
غائبة، فقط ابقِي هنا قليلًا، لا الوقتُ
يبطئ، ولا أنتِ تبقينَ هنا.

عانقتني حينها وقالت لي:



- تركتُ لكِ ابني يا حبيبي، اعتني به،
احتضنه كل يوم، دعه قليلاً لا يشعرُ
بغيابي، إنه أمانةٌ مني لكِ، ووصيتي
الأخيرة هي ابني.

سألتها حينها عن أمرٍ غفلت عنه، كيف
قلتم أن ابني مات؟ أنتِ، نسمة،
والمرضة، لكنها اختفت فجأةً، صحتُ
حينها بسرعة لأن حبيبتني الآن أصبحت
تهربُ مع النوم، وتركت لي واقعاً مؤلماً
أهربُ منه أنا إلى النوم، رأيتُ كنان
يمسكُ سلاحه ويقفُ عندَ النافذة، طلبَ
مني الصمت عندما ناديتُهُ ثم بعدَ بضعة
دقائق أخبرني بأنهم علموا بما فعلناه
وأنه يتوجبُ علينا الرحيل، خرجنا من
ذاتِ البابِ الخلفي، ركضوا خلفنا بعد أن



ابتعدنا قليلاً عنهم، شعروا بأننا كنا هنا
لكن المفاجأة كانت هي وجود طرفٍ ثالثٍ
في تلك المعركة، لم يكن حليفاً لنا، ولا
لهم ولا لأحدٍ من البشرية على ما اعتقد،
اضطررنا لدخول ذلك الاشتباك، طلب
مني كنان أن أركب في سيارتهم التي
ركنوها خلفنا وأن أذهب مع ابني من
هنا، قلتُ له:

- لا تفعل ذلك أرجوك، ليس أنت أيضاً يا
كنان، لقد استخدمتُ حقي من الوادع
حتى ظلمتُ به، ولم تعد لي طاقةٌ لذلك.

- اسمع يا صديقي، عندما كنتُ بالجيش
تعلمتُ أمراً لم يُعلمنا إياه أحد وهو ما
أفعله الآن لذلك اذهب واجعلني من
المتطهرين الذين دخلوا في هذه الحرب،



فالشهادة الأكبر هي على أرض معركة
أكون فيها رجل الحق، لا تكلمني كثيرًا يا
صديقي لأن هذا النزاع سيقوى أكثر بعد
قليل، هيا لقد تعب ابنك كثيرًا، اذهب
بينما أؤمن لك الطريق.

- حسنًا يا صديقي، لا لن أودعك لأنني
سأنتظرك أن تأتي، أخبرتك يا صديقي،
طابقتي للوداع فرغيت، سأنتظرك بدلًا
منها لكن لا تجعل ذلك الوقت يطول يا
كنان، فإن فقدت فارسًا، لا أريد أن أفقد
واحدًا آخر.

خرجت بعد ذلك إلى طريقي من جديد
وابتعدت من هنا، إنني في هذه اللحظة
التي صمت بها الجميع، لحظة هدوء كان
شديد الصراخ، كان الصمت يعم المكان



الذي ابتعدتُ إليه لكن في نفس الوقت
كنتُ أسمعُ الكثيرَ من الأصوات، هل تلك
أصواتٌ من ذاكرتي المؤلمة أم هي
أضغاث أحلام؟ تذهبُ الأصواتُ فجأةً ليعمَّ
الصمتُ تمامًا، هل أنا مرتاحٌ في هذا
الهدوء؟ في هذا الكوكبِ الفارغ؟ ليسَ
هناك حاسةٌ من حواسي تعمل، هل فقدتُ
إحساسي؟ لا لم أفقدهُ مازال داخلي
يؤلمني، هل أنا مرتاحٌ في هذا الهدوء؟
هناك شعورٌ يخنقني في صدري وكأنني
مربوطٌ في حبلٍ إلى السقفِ من قدمي
لكن الضغطَ لم يكن ينزلُ إلى رأسي بل
ينزلُ إلى صدري ويكبرُ هناك، ما هذا
الضغط؟ كيف يذهب؟ أين حضنك الدافئ
يا حبيبتي لكي يُذهبَ عني هذا الحزن؟



أشعرُ أن الحزنَ شخصًا آخرَ يخنقني
ويضغطُ صدري كي أتَنفَسَ من جديد
لكنه يضغطُ بطريقةٍ تُولِمُنِي ثم يخنقني
ويُنقِذني بالألمِ من جديدٍ وهكذا، خرجتُ
بعدها وقلتُ لنفسي:

- "كنتُ أملكُ قليلًا من الأملِ لأتني كنتُ
متأملًا باجتماعي بكِ يا حبيبتي، فأخذوكِ
مني، فقووني بكِ يا رب العالمين لكي
أحملَ هذا الألمَ الذي لا أعلمُ كيف
سأحمله، خُذني إليكِ يا ربي فإنَّ أحبابي
قد أصبحوا عندك الآن، احمي لي ابني،
وأعد كنانًا لي سالمًا غيرَ مصابٍ وغير
ميت، اللهم آمين."

كانت رسالتي الوحيدة التي أريدُ أن
تصلك يا ليالٍ هي أنني اشتقتُ لكِ، وأنه



ليس لي القدرة على أن أعيش في واقع
لست به حاضرة، كانت دقات قلبي عبارة
عن موجات من الحب، وكانت صورتك
جميع تلك الموجات.

كالبحر أنت في صفاء قلبك حبيبتني،
بعيدة عن اكتئاب الحياة وألمها، بريئة
من ظلم الحياة، منارة أهرب لها من
ظلام الحياة حبيبتني، كالقمر عندما تنظر
إليه ولا تجد فيه أية نقطة مظلمة، هذا
أنت حبيبتني، رَوحِي الآن جاثية ومتعبة
تريد رؤيتك حتى تنتهد وتقف من
وقوعها، كان جمال الدنيا يأتيني في
صوتك، كنت تمحين كل ما بي من حزن
وتعب ومشقة كأنك تأخذيني إلى كوكب
آخر، كم أحببتك يا ليالٍ، هل الحب له



قياس، أم أن الحب بذات نفسه كان كبيراً
بك يا ليلتي، التقيت بك زائراً لك،
وجعلتني مملئاً بقلبك وكأنك القاضي
الذي حكم عليّ بالحياة، كأنك ملجأ من
الحياة إلى الحياة، دمروا حياتي الآن يا
حبيبتني وأنا لم أستطع اللحاق بها،
دمروا مملكتنا وقتلوا سُلطانها واعتدوا
عليها، قتلوا فارسها وجعلوا الملك
يُصبح صديقاً لقبر ملكة أصبحت تحت
التراب، سأستيقظ يا حبيبتني ذات يوم
وأنا بين ذراعيك حياً أرزق، سأنام كل
يوم من أجل تلك اللحظة يا حبيبتني،
سأغض عيني لكي أراك، فقد حرموني
من البصر في الدنيا لكنني أهرب من
ذلك مغلق عيني، لا دور لي الآن في



فلمهم، سأضعُ هنا نقطةً ثم أبدأ بعدها
بتاريخٍ ثاني أنقذُ فيه من أستطيع، وأقرأ
الفاتحة على من لا الحقُّ به، مثل ليأتي
وفارس.

ذكرائكم في البالِ حاضرةً يا شهدائي،
صوركم ما زالت داخلي، ليأتي أستطيعُ
أن أفعلَ مثلكم وأُغادرُ هذه الحياة، ليأتي
أستطيعُ القدومَ إليكم الآن لكن لا يمكنني
فعلُ شيء، كل ما حصل هو قضاءُ الله لا
اعتراضَ عليه، والحمدُ لله على كل حال،
ليرحمكم الله يا أحبائي وجمعُني بكم عن
قريبٍ في جنةِ الخلد، حينها سأخجلُ أن
أطلبَ من الله شيئاً بعد ذلك.

ها أنا أجتازُ حدودَ مدينة ليالٍ من جديد،
المرّة السابقة كانت مؤلمةً في الدخولِ



لكن الآن الوضع هداً قليلاً، كان يجب أن يهدأ، فالملكة ماتت، الوقوف حياة صمتٍ كاملةً قليلٌ على هذه الحادثة، وهنا نحن الآن نقف صمماً على روح شهدائنا الأبرار، كان يوجد الكثير من الناس، منهم من يحاول العشور على أحد الشهداء تحت رماد الحرب، ومنهم من بقي تحت ذلك الرماد، كانت الكثير من الجثث تخرج من أسفل هذا الرماد، هنا بركان الحرب الذي كان ينفجر هادئاً، وفي كل جمرة يقدفها كان يقتل شخصاً، في تلك اللحظات كنا نعلم أن اللحظات القادمة ستكون أصعب، وستكون النهاية إما لنا أو لداخلنا، كانت الصحافة أيضاً هنا، ألف إذاعة تنشر خبر الموت لكن لا



يوجد ولو حتى شخصٌ واحدٌ يحاولُ
منعه، لا نريدُ أن نعرفَ أن الناسَ هنا
تُقتل، نريد أن نحاولَ أو نساعد في منع
ذلك، انشروا الحرب في الفضائيات لكن
حاولوا في أن تكونَ تلكَ اللحظة هدفاً
لقيام أحدِ الجالسينَ بالمساعدة واقفاً،
وعدمِ المشاهدة فقط.



الفصل الثامن

حان اللقاء

نسمات الأدب

للنشر الإلكتروني



وصلتُ إلى المستوصفِ أخيراً بعد تعبٍ
دام لساعات، رأيتُ الناسُ هنا، الصحافة
ومنظماتِ المساعدة ثم جاءت علياء من
خلفي وقالت لي:

- أحمد! هل هذا أنت؟!

- نعم أنا يا علياء، هل كانت مدةُ غيابي
كافيةً لتسيني؟

- لستَ شخصاً يُمكن نسيانهُ بسهولة
أنتَ تعلمُ ذلك لكنك قد تغيرتَ كثيراً، ما
هذه الذقنُ الطويلة الشائبة؟ ما هذا
الشعرُ الشائب؟ أنا أيضاً فوجئتُ بعودتك
وحيداً بعد هذا الوقت.

طلبتُ منها أن تأخذ ابني إلى الداخل لأنه
متعب كثيراً، وبعد فعلها ذلك عادت لي



وسألتني ذات الأسئلة من جديد، قلتُ لها:

- نعم يا علياء، لقد عدتُ لأساعدَ الناس في شفاءِ جروحهم بدايةً بعد ما سببتُهُ لي الحياة من جروحٍ لا أستطيعُ شفاءها لنفسي، لا تستغربي من عودتي بهذه الحال وبهذه الصورة بعد ما حدث، استغربي من عودتي فقط.

- الذي حدث! ماذا حدث؟! أخبرني، حسنًا، سأهدأ قليلًا لكن أين ليالٍ؟ فارس، نسمة وابنك؟ أين الجميع؟ لماذا كلُّ هذا التعبِ عليك كأنك شخصٌ فارقَ الحياة وهو على قيدها؟ تصورتك أن تعود بحالٍ أفضل لأنك ذهبتَ إلى ليالٍ، حبيبتك، راحتك وحياتك.



بعد هذه الأسئلة لم أستطع إمساك عيني
من فضحي، بكيتُ، بكيتُ لأنني فعلاً متُ
وأنا على قيد الحياة، شعرت علياء بأنها
فتحت لي أحد الجروح الخامة لكنها لم
تعلم أن تلك الجروح مازالت تهشني
شيئاً فشيئاً، فقالت لي:

- أنا آسفة إن كنتُ تسرعتُ في سؤالكِ
كل هذه الاسئلة لكنني لا أعلم شيئاً من
الذي حصل، الأفكار داخلي تقتلني،
ورؤيتك هكذا تقتلني أكثر لكنني سأسكتُ
قليلاً، أرجوك لا تبكي، إن أردت يمكنكِ
أن تخبرني بعد أن ترتح قليلاً؟

- عندما ذهبتُ لكي أجمع بأحبائي يا
علياء، كنتُ ذاهباً لكي أودعهم وأنا لا
أعلم، لقد قتلوا حبيبتي يا علياء، قتلوا



فارس أيضاً، قتلوهم ولم يشفقوا عليّ
ولو حتى قليلاً، حتى ولدي كان رهينةً
لديهم لكن الله وفقتني في إعادته، لا
أعرف كيف أستطيع أن أحمّل كل هذا
الألم لكنني بعد كل شيء قررت العودة
إلى هنا، إلى ملجأ الناس هذا بعدما قُتل
ملجأي.

- أنا آسفة لكنني لا أستطيع تحمل هذا.

ثم حاولت علياء الرحيل وهي تبكي
فأمسكتها وقلت لها:

- اجلسي وابكي هنا لا داعي لهروبك
فقد اعتدت على رؤية الدموع يا علياء.

ثم تُعانقني علياء وتبكي وتصرخ قائلة:

- لماذا؟ لماذا؟



- يا علياء بلدي مات لم يعد فيه أحياء،
فموت القلب والعقل يجعلنا جميعنا
أموات، حي القلب لا يقتل، لا يظلم، لا
يسرق، لا يغتصب، لا يدع فرصة
للشيطان في قلبه، حي العقل يعرف أن
حي القلب هو الحق ليقف معه، لكنهم
اغتصبوا، قتلوا وسرقوا يا علياء، ونحن
لأننا أحياء العقل، نحن أموات يا علياء،
أموات لكن باستطاعتنا أن نساعد في
حياة غيرنا لأننا أحياء القلب أيضاً، رغم
تلك الطعنات التي تفتك قلبنا، لا زال
ينبض ذلك القلب يا عليا، لا زال ينبض.

- أين نسمة يا أحمد؟ وابنك أخبرني أين
وكيف وجدته؟



- بالنسبة لنسمة لقد أرسلتها إلى عمها خارج البلاد لكي أطمئن عليها، أما ابني هذه قصة طويلة، سأخبرك إياها بعد أن أرتاح قليلاً، الآن أريد منك فقط أن تكفي عن البكاء، لدينا الكثير من العيون لكي نمسح دموعهم.

الصمت والنظر جانباً مع صورة متحركة أغضت عيني قليلاً لعلني ألتقي بغمامة النوم لكن عقلي أرسل أمراً عكسياً عن إغماض عيني، أشعلت المصباح، جلست قليلاً حتى دقت علياء الباب في قرابة الساعة الواحدة ليلاً:

- مرحباً، أنا آسفة أنني جئت في هذا الوقت لكن النوم يرفضني، فهل تستقبلني أنت؟



- تعالي يا عليا، اجلسي فالنوم يخيم في
حدائق الأموات الآن ويترك أعيننا
جالسة صاحبة باكية على النائمين.

- أحمد إن عيني تقف على حافة البكاء،
أرجوك لا تدفع بها، جئت إليك لأنك
دخلت إلى هنا منذ مجيئك ولم تخرج،
هل أنت بخير؟ ألا تريد أن تخبرني ما
حدث؟

- أنا! لست بخير يا عليا، لست كذلك
لكنني أعلم أن لله حكمة في ذلك الأمر،
هذا ما يجعلني أقول الحمد لله متأملاً أن
أصبح بخير، وكيف تطلبين مني عدم
دفعك للبكاء، وأنت تسأليني عن قصتي
التي لو تكلمنا عن حقها بالبكاء لأخذت



حياتي كلها به، ربما أستطيع بذلك أن
أوفيها القليل من حقها.

- أخبرني، لقد خبأتُ ما تبقى بي من
دموعٍ لأجلِ سماعك، لأن غيابك ثم
مجيئك وحدك جعلَ عقلي وقلبي في
متاهةٍ من التفكير، أخرجني من تلك
المتاهة المعقدة جدًا وأخبرني ما حدث
معك بشكلٍ كامل.

أخبرتها قصتي التي جعلتني بالفعل آخذُ
ما تبقى من دموعٍ داخلَ عينيها لكن
الدموعَ لا تكفي، العينُ تخرجُ حزنها
بدموعها للخارج لكن أين يذهبُ القلب
بدموعه؟ أيُّ الأعضاء الداخلية سيواسي
القلب ويمسح دموعه؟



عندما كانت حبيبتني هنا، كم أكره أن
يأتي الفعلُ الماضي الناقص قبل كلمة
حبيبتني، لا أشعرُ بأنه فعلٌ ناقص كما
يُشعرني أنه يأخذُ من الجملة كلها كمالها
بإخفاء حبيبتني من الواقع ووضعها في
طيات الماضي، حبيبتني هي الوحيدة التي
واست قلبي، استطاعت من الخارج أن
تمسح دموعه وتعاتق ألمه حتى يطيب.

بعد ذلك أرادت علياء الذهاب، قالت لي
قبل ذهابها:

- أطفئ المصباح، لم يعد الظلام يختلف
عن النور.

- إن كان نور الدنيا فأننا معك يا عليا لكن
ثقتي ليست بهذا النور بل بنور الله الذي
يختلف كثيرًا عن ظلامه، أريدُ ثقتك كلها



في ذلك النور أيضاً يا علياً لأنه صدقيني
إن عثمت الدنيا بأكملها ستجدين نور الله
الذي لا ينطفئ، اذهبي ونامي، احزني
لكن لا تطيلي بذلك لأن للصباح وقتٌ
سيصل قريباً.

- حسناً سأذهبُ إلى النوم، إلى اللقاء،
وأشكرُ كثيراً قوتك الداخلية التي ضمدت
جرحي وأوقفت نزيفه رغم أنه لا يزال
يؤلم لكن نزيفه توقف، سؤالي لك هو:
هل سيزول هذا الألم؟

- ربما يهدأ قليلاً لكنه لن يزول، اسمعي
قبل رحيلك يا علياء، ليس عيباً أن
تُجرحي أو تحزني لكن في هذه الدنيا لا
تظهري حتى تتعافين تماماً، لتظهري
بقوة، لأنك إن ظهرتِ بجرحٍ ستستمرُّ



الحياة بتوسيعه حتى يبتلعك بشكل كامل
لتقعي في وادي المجروحين، ولست
ضعيفةً لدرجة الوقوع به يا صديقتي، أنا
أعلم، وداعًا.

ذهبت علياء ثم تبعها الليل الذي أشرقت
شمسه بسرعة، وقفت غسلت وجهي،
خرجت لأجد علياء من جديد:

- أنا فرحة بعودتك ومساعدة الناس في
شفاء ألمهم لكنني حزينة على الذين
يموتون جميعهم ولا نستطيع إنقاذهم.

- أريد شعورك كله في عملنا لكن أريدك
أن تعلمي أنه مهما فعلنا لن نستطيع
شفاء الجميع، فالموت يريح قلب أحدهم
ويترك لنا قلوبًا أخرى نستطيع إنقاذها.



- حسنًا لكن هل أنت بخير الآن، ادخل واسترح قليلاً، إن كان لا يزالُ بدنك متعباً فما شهدته ليس قليلاً.

- لستُ بخيرٍ يا علياء لن أكون أو ربما العكس لكنني متأكدٌ أن هذا الألم لن يزول يا علياء، لكن هيا بنا للعمل، لا حاجة لي للجلوس هنا مع وجود الكثير من الناس الذين يحتاجونني هناك، هيا بنا وانسي كل شيء أثناء عملك، نحنُ فقدنا أحباباً ولا نريدُ أن يحصلَ هذا مع أناسٍ آخرين، هيا يا عليا.

هكذا بعد عودتي بدأتُ أنا وعلياء العمل في هذا المكان ومساعدة الناس في شفائهم، كان هذا أول إنجازٍ لي بعد موت حبيبتي، هذا الإنجاز الذي سألقي عليه



حتى أموت، وعلياء أخذت دورًا كبيرًا
في الاعتناء بالحسن وبدأت أرى تعلقًا
من جانب الحسن بها، الأمر الذي جعلني
أرتاح قليلًا لأنه مهما فعلت لابني لن
أستطيع أن أملأ مكان والدته بشكل كامل
لأن حنان الأنثى يعطي ضوء لا نستطيع
نحن الذكور اعطاءه، ذلك الضوء يضيء
ظلامًا في قلب الشخص لا نستطيع بما
نفعله الوصول إليه، ها أنا يا حبيبتى،
بدأت أمرًا واحدًا فقط، سأستثمر به
أيامي الفارغة من وجودك، ليست أيامي
فارغة منك، فروحك هنا لكن جسدك
وروحى في مكان آخر فقط، سوف
أساعد كل شخص أستطيع أن أفعل له
شيء، أعلم أنك ترينني وأنت فرحة



بذلك، هذا هو ما يُفرحني أنا أيضاً يا
حبيبتي، لم أعد أريدُ النظرَ إلى أيِّ
شيءٍ، أنهي فترة استراحتي مغمضَ
العينين لكي أراك، وأكونُ معك فقط في
هذه اللحظة ثم أعودُ بعدها إلى واقعي
بفتح عيني من جديد، حبيبتي أصبح
النومُ فقط من أجل رؤيتك لم أعد أنامُ من
أجل شيءٍ آخر، وفي كل لحظة من الآن،
أسأل نفسي سؤالا واحداً فقط وهو متى
سأراك يا ليالٍ؟

جميعنا غارقون في بحر الموت، لن تجد
أحداً منا في النهاية، سنلقي عليك السلام
الأخير ثم ستغرقُ أيدينا معنا، تلك
اللحظة حين ستبكي ألف عينٍ وربما
أكثر ثم سنغرقُ بعدها من جديد، ربما



يفقد الإنسان أحداً يتألم عليه طوال حياته لكن كيف إن فقد الجميع؟ أو شخصاً يعتبره كذلك؟ ربما الأمر مؤلم إن كان ما أعاني منه طبيعياً أو لا.

ليالٍ، حبيبتَي، كانت حياتي كلها بين لامتَين، كنتُ من صغري أحبُّ حرفَ اللام، لقد سرقوا مني حروفي اللامية جميعها بقتلك يا حبيبتَي، لقد قتلوا البلد ليحتلوه ثم بعد كل شيء ساروا في جنازته ودفنوه.

الحياة دائماً تأتينا بشكلٍ معاكس، تأخذُ منا قلبنا وثُبقي فينا جهازنا التنفسيّ، تجعلنا نتنفسُ في منتصفِ غرقنا لكي نتألمَ في كل شهقةٍ نتنفسُها، فكلُّ نفسٍ هنا أصبحَ يجعلنا نحتضرُ لكن دون أن



نموت، ربما تنتهي الحياة بنا ونحن على
قيدها، ربما ننتهي نحن قبل انتهائها،
لكن في كلا الأمرين سيكون الألم صديق
الطريق الذي ستحكمة الحياة المظلمة
تلك علينا، وسنسير في ذلك الطريق
مجبزين ولسنا مخيرين، لا أعلم متى
سينتهي هذا الأمر كله لكن أتمنى فقط أن
لا أنتهي قبله.

لم تكن السحاب مصدر المطر بل كانت
تفاعلات عديدة مع حدوث التبخر
والأمور الأخرى التي أدت إلى حمل زائد
على الغيوم جعلها تفيض بالغيث، هكذا
قلوبنا بعد آلاف المعارك والتفاعلات وما
تبقى من أمور تتراكم عليها تجعلها
تفيض بالبكاء أجلاً، لكنني تحملت الكثير



قبل ذلك، تحملتُ الكثير قبل موتكِ يا
حبيبتي، وعندما حانت ساعة الفراق
كان لابد من تجمع جميع الغيوم التي في
قلبي لتنفجر بذات اللحظة، رغم أنها
كانت وسيلة لتخفيف الحمل لكن فكرة
موتكِ كانت ممولاً مستمر لجعل قلبي في
بكاء دائم، لا زال ما يأكل دماغي هو
سؤال واحد فقط، إن كانت كلمة اليتيم
داخل المنزل تعني فاقد الوالدين، فماذا
تعني هذه الكلمة في الوطن؟

كان أغلب وقتي محبوزاً لقراءة القرآن،
بعض الآيات أجدها فيها راحة تجعلني
مداوماً عليها، بعضها وصفت حالتنا
وكان الله جل جلاله يكلمني مباشرة
ليقول لي حلاً لوضعنا هذا، هي بعض



كلمات ذكرها الله تعالى في سورة الأنعام
قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ
وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ
لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ
يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَهُوَ الْقَاهِرُ
فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا
جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا
يُفْرِطُونَ * ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ
أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ * قُلْ
مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَيْنَا مِنْ
هَٰذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللَّهُ
يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ
تُشْرِكُونَ * قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ
عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتَ



أَرْجُلُكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ
بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ
لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ * وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ
الْحَقُّ قُلْ لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ * لِكُلِّ نَبَا
مُسْتَقَرٍّ وَسَوَافٍ تَعْلَمُونَ * وَإِذَا رَأَيْتَ
الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ
حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا
يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ
الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}.

بعد دعاء طويل، وذقن مبتلة إثر هذا
الدعاء، استجاب الله لي، وحن وقت
اللقاء، في لحظة مفاجئة سمعتُ علياء
تخبرني بأن أحد الجرحى الذين وصلوا
منذ قليل يريد رؤيتي، ولا يريد من أحد
أن يخطئ جرحه إلا أنا، ذهبت لأرى



حينها عادت لي الذقنُ المبتلة مع دعاءٍ
مستجاب، عادَ أحدُ الغائبين، كنان
صديقي ومعه طفلين صغيرين، عانقته
ثم قال لي:

- على رسلك أيها الحكيم، ידי تؤلمني.
- أهلاً بك يا صديقي، سأخيطُ لك جرحك
ثم ستأكلُ قليلاً وترتاح، لتخبرني بعد
ذلك بالتفصيلِ الممل ما الذي حدثَ معك.

كانت لدي طاولة قديمة تحملُ على
عائقها كاميرا قديمة من كاميراتِ
التحميضِ تلك، احتوت هذه الكاميرا على
ذكرياتي الغنية بتفاصيل الحياة، ذكريات
لو عشتُ ألفَ عام سأجدُ سبباً فيها
يعيدني بذاكرتي للعيش بها بعضَ
اللحظات، عندما أغمضُ عينيَّ عن



الواقعِ عنها وافتحهما داخلَ تلكِ
الكاميرا، فيما بعد وجدتُ اسمًا مناسبًا
لها، في حينِ أنني أحبُّ تسميةَ كل شيءٍ
حولي بما أحب، فوجدتُ اسمًا مناسبًا
لحاملةِ ذكرياتي، واسميتها بليالٍ أيضًا،
هذا ما كان يجبُ فعله منذُ البداية لكن
الآن دفنوا ليالٍ تحتَ التراب، أقصدُ بليالٍ
هنا، كاميرتي، أحلامي، لوحاتي، كتاباتي
كل شيءٍ أحببتهُ في هذا الحياة، والموئل
أن من سميتُ باسمها كل تلكِ الحياة قد
دُفنت أيضًا، والآن بقيتُ وحيدًا أعيشُ
بين سراديبِ الحياة، لعلي أخطو خطوة
تعيدني في الزمن قليلًا للوراء، إلى زمنٍ
ليلاتي تلك، فأبقى هناك، تعبتُ قليلًا
فجأةً، طلبت مني علياء النومَ قليلًا،



سافرتُ حينها عبرَ قافلةِ الأحلامِ إلى
محطةِ حبيبتي، رأيتها عانقتها، قبلتها
وكأني ما تركتها، أحسستُ شعةَ
الشوقِ تبرمُ حولنا فأطفأتها حينَ
عانقتها، وجعلتُ بركانَ الحياةِ يثور
غضبًا مني حينَ وجدته.

أحلامي، من المؤلم أن تصبح الأحلام
هي المنجى الوحيد من واقعنا المؤلم،
لأننا نعلم أنه مهما طالَت فإن الواقعَ
يحملُ بين طياته آلامَ إزالتها لتصبحَ
مسكنًا مؤقتًا نأخذُه علاجًا يخففُ من ألمِ
الواقعِ حتى إشعارٍ آخر.

دخلَ كنان إليّ، أيقظني، رأني منزعًا
عندما استيقظتُ فاعتذر لي، فقلتُ له:



- لا تعتذر يا صديقي، ما أيقظني الحقيقة
الحقيقة أنني استيقظت في وقتٍ كان فيه
النوم أرحم بكثيرٍ من الواقع، وأنني
نسيتُ خصلةً من شعرِ حبيبتي لم
أعانقها، أخافُ أن تحزن يا صديقي، هذا
كلُّ ما في الأمر.

- اصبر يا أخي اصبر فالفرج قريبٌ بأذن الله.

- لا شكَّ لديَّ في ذلك لأنني بكلِّ يقين
أعرفُ كرمَ الله، أنا فقط يا صديقي تعبْتُ
قليلاً، قليلاً فقط، تعبْتُ من اصطناعِ
شخصاً آخر لا يشبهني كي لا أظهرُ
حزني وتعبِي الذي بداخلي، من المؤلم يا
صديقي أن تعلم أن الأملَ موجود لكن
داخلك يعكسُ تلك الكلمة لينعصرَ عدة
مرات ثم تشعر بأنك فقدت شيئاً من



الداخل، شيئاً كان يصنعُ ذلك الأمل،
لتبقى فقط أحرفه ولتسبق اللام الميم،
الميم الساكنة في كلمة ألم أيضاً لم تعد
كذلك، باتت تترافقُ مع الكسر وجوباً
لتقدير الواقع، هذا الذي لا أعلم حتى
الآن ما هو أو كيف أعالجه بداخلي، ليالٍ
هي من كانت تفعلُ ذلك، أنا لا أعلمُ
علاجَ هذا المرض يا صديقي، ولا أعلم
إن كنتُ سأتعلمهُ يوماً ما، أظنُّ أن مثلَ
هذه الآلام لا نستطيع علاجها بأنفسنا
مهما تكبدنا من تعبٍ وموتٍ ليأتي
شخصٌ ما يعالجُ هذا الألم بلمسةٍ واحدة،
تصبحُ تلكَ اللمسة الفنية والتقنية دواءً
مستمر يجبُ أخذه مدى الحياة والذي
يؤلمني يا صديقي أن ذلك الدواء انقطع،



ربما دوائي أنا، البشعُ أيضًا في هذا
المرض أنه لا يظهر إلا عند انقطاع
الدواء بل يظهر بقوةٍ حينها.

- لا شك بأنك تعبت بل هذا قليلٌ أمام ما
عانيتهُ يا صديقي لكن أريدك أن تعلم أن
الإنسان لا يتعرضُ لألمٍ كهذا إلا إذا كان
على الطريق الصحيح، وأنت على هذا
الطريق، لم أفهم من كلامك إن كنتُ فاقداً
أو تفتقدُ للأمل لكن لا شيء يضاهي
فكرة الأمل، إن كان بحد ذاته مفقود،
برأيي لا أريدك أن تيأس لكنني لم أعد
أرى النور في هذه الحياة كأننا في
دوامةٍ من البؤس المزدوج مع الموت،
الموت الذي يعذبنا دون أن يقتلنا،



سأدعك وأذهب قبل أن أضع على قلبك
مزيذاً من الحزن.

- اجلس يا كنان، اسمع رأيت الكثير من
الموت، الكثير من الألم، ربما أشياء
أخرى لكن المهم هو أنني لم أفقد الأمل
من وجود النور لأن ذلك النور هو نور
الله، اسمع هذه الآيات ثم قل لي ماذا
شعرت بعدها، قال الله تعالى في سورة
النور {اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ
نُورِهِ كَمِثْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي
زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّي يُوقَدُ
مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا
غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ
نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ



يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

- صدق الله العظيم، أرحت قلبي بالعلاج
الصحيح أيها الطبيب، أدعوك بتلك
الراحة نفسها يا صديقي، أعلم أن هذا
الأمر كله متعب لكن الصبر دواءً لا يتلاءم
حتى يزول، أليس كذلك؟ أم أننا سنجزى
بعقابٍ على ذلك؟

- أتعلم، يقول تولستوي (أقوى
المحاربين هما الوقت والصبر)، بينما
يقول الفرنسي جون جاك روسو (أن
الصبر هو أول شيء يجب على الطفل
تعلمه لأنه سيساعده على حل مشاكل
كثيرة في حياته بالمستقبل)، سقراط
قال: (أن الصبر له مذاقٌ مر ولكن



نتائجُه جميلة)، جميعهم مدح الصبر
وأبدعوا في ذلك لكن أجمل من ذلك
وأعظم هو أنه سبحانه قرن الصبر
بأركان الإسلام ومقامات الإيمان، فقرنه
بالصلاة في قوله: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ
وَالصَّلَاةِ}، وبالتقوى في قوله تعالى:
{إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ}، وبالشكر في
قوله تعالى: {إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ
صَبَّارٍ شَكُورٍ}، لذلك يا أخي لا أرى حلاً
أجمل من التفكير في نتائج الصبر، لا
بالوقت الذي سيأخذه ذلك التفكير، الآن
أخبرني ما الذي حدث معك في رحلتك
منذ تركتني حتى عدت إلى هنا، أنا
أسمعك يا صديقي.



- بعد أن تركتك أنت والحسن، ذهبتُ
بعيداً ليتبعوني، وقعتُ في أحد الحفرِ
هناك، ظننتُ أنها من صنعهم وقلتُ أنني
وقعتُ في يدهم لا محالة لكن الله قد
أوقعني في تلك الحفرة لينجيني منهم،
قضيتُ كثيراً من الوقت هناك حتى
سمعتُ صوتاً في الأعلى، من شدة تعبِي
وجوعي، ناديتُ بصوتٍ عالٍ ليعرفوا
أنني هنا، لم أفكر بمن في الأعلى لكن
الصدمة أنهم كانوا طفلان في الأعلى
عثروا عليّ، طلبتُ منهم أن ينادوا لأحدٍ
كي يساعدني لكنهم صمتوا ثم ذهبوا
بعيداً عني حتى أتت عتمة الليل، وأتى
معه تفكيرُ الموت، علمتُ أنني في دائرةٍ
سأموتُ بها، أنني نجوتُ من الموتِ



السريع بالموتِ البطيء، أخرجتُ صورَ
أحبائي من جيبِي، قبلتهم ثم تيممتُ
وصليتُ ركعتين لله، بقيتُ ساجدًا أناجي
ربي، أقولُ من قلبي، يا الله، يا الله، يا
الله، أنجني يا ربي من هذا الامتحان،
دعني أرى عائلتي قبل موتي، دعني
أقبلُ رأسَ والدي، أقبلُ قدميهما، لا أريدُ
الموتَ قبل رؤيتهما، أرجوكم يا ربي،
استقمْتُ بعدها، وعند سلامي الثاني
سمعتُ صوتًا من الأعلى يقول (السلام
عليكم، هل أنتَ عالق هنا؟ أعطني يدك،
سأرمي لك حبلًا)، بعد أن أخرجني
نظرتُ إليه، رجلٌ بعمرِ الأربعين عامًا
تقريبًا برفقته ذاتُ الطفلين الصغيرين،
عانقتهما وشكرتهما، شكرتُ الرجل،



ذهبتُ بعدها إلى منزله الذي كان يسكنه
مع ولداه، أخبرني بأن زوجته ماتت في
هذه الحرب بينما كانت تعمل في أحد
المنازل لتساعده بالمصروف، وأنه الآن
لا يملك سبباً للحياة سوى طفليه، حاولتُ
أن أواسيه قليلاً ثم أشكره على
مساعدي، شعرتُ بعد ذلك بالتفصيل
الممل الذي كتب في تفاصيل الحرب في
ذلك الوقت، وأقصد بالملل هنا، الهدوء
ما قبل العاصفة، لم يطل الوقت حتى جاء
أولئك القتلة، خبئني عليّ، بالمناسبة
كان يدعى علي صاحب المنزل نسيْتُ أن
أقول لك، خبئني عليّ حينها أنا وطفليه
في غرفة صغيرة أسفل المنزل، لم يكن
الضوء يصل إلى هناك، كانت دقات قلبي



فقط ما أشعرُ به، لم أكن خائفًا على نفسي بل على من في الأعلى وعلى أطفاله الذين معي، سمعتُ بعد عدة دقائق أصواتَ أقدامٍ في الأعلى، كانت تلك الضربات التي أسمعها من الخارج، ودقاتٌ قلبي من الداخل، سمعتُ أحدهم يقولُ أخبرني أينَ ذلك الجنديّ، كانوا يسألونَ عني، لم يخبرهم، عمّ الهدوءُ بعد ذلك لمدةٍ قليلةٍ جدًا سمعتُ بعدها صوتَ السلاح، رصاصة واحدة، رصاصة واحدة شعرتُ بأنها تقيم مؤقتًا في أذنيّ قبلَ أن تتنقل لقلبي، تلك الرصاصة التي شعرتُ أنها تُعبّرُ عن العجزِ العربيّ، ذهبوا بعد ذلك لكنهم تركوا مكتبةً كاملة خلفهم مليئةً بتخلفهم



وحقدهم، لا يمكن بتلك المكتبة أن تجد
كتبًا عن الرحمة أو بمعنى عام عن
الإنسانية، أطفالٌ فقدوا أباهم بعد والدتهم
هل يستحقون هذا؟ هل أنا أستحق أن
يضحي عليّ لأجلي؟

- اسمع يا كنان، اختيار دور الضحية
سهل جدًا لكن دور البطل صعب اختياره،
وبالأحرى صعب القيام به، علي اختيار
ذلك، ليس لأنك تستحق تضحيته أو لا،
لكنه كان يعلم اذا أخبرهم ما يريدون،
سوف يقتلونكم ويأخذوا أطفاله لهم لذلك
اختار دور التضحية بدلًا من حذف التاء،
صدقني لو كنت أنت مكانه لفعلت ذلك.

- كل ما سأفعله هو الدعاء له بالرحمة،
ورعاية طفليه حتى أموت.



- لا شك في أنك ستفعل ذلك، لأن هذا هو الأمر الصحيح.

ودعني كنان وشكرني لكن قبل خروجه سألني عن حالي، كيف أصبحت الآن بعد مضي عدة سنين على هيئة أيام من موت حبيبتي، قلت له:

- أتعلم يا كنان عندما يتخاصم اثنان لماذا يصرخان وهم بجانب بعض ولا داعي لأن يعلو صوتهما؟

- لماذا يا صديقي؟ أخبرني.

- لأن أجسادهم فقط هي القريبة من بعضها لكن قلوبهم تكون قد ابتعدت كثيرًا عن بعضها لذلك يحاول أحدهما إرسال صوته بشكل عال لكي يلحق بقلب



الآخر، لكن الصوتان يرتطمان ببعضهما
فيسقطان على التلاشي تاركان الأمر
على عاتق الواقع المؤلم، لعله يرسم
طريقاً يعكس به قلب أحدهما ليلتقي
بقلب الآخر.

- هل تعلم يا صديقي؟ لم أفكر في هذا أبداً
لكنني الآن أفكرُ بذلك بطريقةٍ أعرفُ بها الحل
لكن سؤالي هو لماذا تخبرني بهذا؟

- لأن ما حصلَ معي هو العكس يا كنان،
لقد فارقني جسدُ ليالٍ وبقيَ قلبها بجانبني
طيلة الطريق لكن المؤلم هو أن الأمر
هنا لم يستطع الوقوع على عاتق الواقع
بل جعل نفسه خطأ من أول السطر يبدأ
عندما تقع النقطة في نهاية شطر الحياة.



- اسمع صوتك عن طريق قلبي، هكذا
كلمات لا تستقبلها الأذن، أنا آسف إن
كان سؤالي قد وصل إلى مكانٍ يحركُ به
ألمك لكن رؤيتك متعبًا دون استطاعتي
فعل شيء، هذا الأمر يقتلني يا صديقي
يقتلني.

- أنا بخير يا كنان، لا تعتذر بل سأشكرك
لأنك تسألني عن السبب الذي يحركُ
بداخلي الأمل، الأمل بأن أجسادنا
ستتلاقى ذات يوم، ارتح قليلاً بينما
أذهب أنا إلى الخارج لأرى إن كانت
علياء في حاجةٍ لمساعدتي بأمرٍ ما، هيا
يا صديقي، وداعاً.

بعض اللحظات لا نقدرها، نجعلها تمضي
بذات السرعة التي تمضي بها غيرها



دون أن نعلم أننا هنا يجب أن نتوقف قليلاً، أصبْتُ في تقديرٍ ومراعاتي للحظتي مع ليالٍ، حين التقينا في المرة الأولى، لكنني أشعرُ بأنني قد ضيعتُ الكثيرَ من اللحظاتِ بعد ذلك، أحببتُ كثيراً حياتنا، أتمنى العودة للحظةٍ واحدةٍ فقط، أغتنمُ بها ما ضيعت، لكن الأمنيات المسـتحيلة لا تتحققُ بالدعاء، مهما امتلأت الحياة، ستبقى فارغة في غياب من نحب، علمتُ هذا وقلته دائماً لكنني مللتُ من قيد الحياة، أريدُ أن أعيش قليلاً بين ذراعيك يا حبيبتي، حين نعتادُ على أمرٍ ثم يتغير، يحتاجُ العقل فترةً حتى يتأقلم مع الوضع الجديد لكن غياب بعض الأشخاص يجعلُ القلبَ والعقل في



دائرة مغلقة تستمر إلى الأبد دون القدرة
على الخروج منها والاعتماد على
المستقبل في محي تلك اللحظات الأخيرة
أو استبدالها بالبدايات، لكن هذا هنا لا
يحصل لأن ما يسيطر على الحاضر
والمستقبل هي ذات الدائرة تحت عنوان
الماضي، دون تقدم، ودون عودة.

ذهبت لأرى علياء رأيتهما تجلس بجسدها
هنا، وعقلها كان مسافرًا في عالم آخر،
احتاج مني عدة كلمات مع العديد من
المرات التي فرقعتُ بها أصابعي حتى
أعيدهُ ثم قالت علياء متفاجئة بي:

- أحمد، عفواً الدكتور أحمد، أنا آسف
أسفة أنا فقط شردت قليلاً لكنني هنا
أخبرني هل أنت بحاجة شيء؟



- أعرف أن ما حصل لا يمكن أن يترجم
إلا بأن يهربَ عقلنا قليلاً في التفكير إلى
الخارج، خارج الواقع عائداً إلى بعض
اللحظات الأخيرة من حياتنا القديمة
لكنني أحتاجُ عقلك هنا يا علياء، لا
تجعليني أبقي وحدي هنا، هيا اذهبي
واغسلي وجهك بالماءِ وعودي بسرعة
لنرى إن كان هناك من يحتاجنا.

لا شك أن الألم لا يمكن أن يذهب بغسيل
وجهنا بالماء لكن هذا الأمر يُخبئ
دموعنا قليلاً خلفه، وبالنسبة لإيقاف تلك
الدموع، لا شيء يوقف دموعنا سوى
سفر ذلك العقل مجدداً لكنه يؤخرها فقط
حتى نستيقظ ثم تفيض بعدها.



رأيتُ عجوزًا تجلسُ على أحدِ المقاعد،
عقلها كان مسافرًا أيضًا لكن وجهتهُ
أين؟ هذا ما جعلني أقترُبُ منها واسألها:

- مرحبًا يا خالتي، أراكِ حزينة، هل
يمكنني أن أساعدكِ بشيء؟

لم تُجبني، طلبتُ منها أن تتأديني إن
احتاجت أمرًا ما ثم استدرتُ لكي أذهب،
فقلت لي بصوتها الراجف:

- أنتَ الطبيبُ أحمد، ابني اسمهُ أحمد،
ابني الوسيم الجميل، حبيبُ قلبي، كان
كل شيء بالنسبة لي بعد أن سافرَ جميعُ
أولادي، بقيَ هو بجاني كان لا يحرسُ
البلاد فقط بل كان يحرسُ قلبي بين
ضلوعه، ابني الجميل أخذوه مني، قتلوه
بكلِ برودةٍ دم ثم أخبروني أن ابني مات،



لم يعلموا أنه لم يمت، ابني استشهد،
وربنا الكريم في كتابه العظيم أخبرنا أن
الشهداء أحياء هم فقط صعدوا لرتبة
عالية جدًا رتبة الأحياء عند الله، أنا
أشكر الله لهذا الأمر لأنني أعلم أنه لا
يأتي من الله إلا كل خير، ولأنني كنت
صبورة رزقتني الله بأمرٍ عظيم هو أن
زوجة ابني الشهيد حامل تحمل بين
ضلوعها ما يجدد إحياء روعي لأن الله
تعالى يبتلينا من ناحية فنصبر، فيجزينا
أجر صبرنا القوة للاستمرار، الاستمرار
بالصبر وشكر الله تعالى على صبرنا،
لذلك لا أحتاج شيئاً منك يا بني، الله تعالى
يعلم كل ما أريد، ومن فضله يعطيني ما



يريدُ هو، لكنني أرى دموعًا داخلَ
عينيك، أخبرني هيا، أخبرني قصتك.

بعد أن أخبرتها بقصتي، وكيف عثرتُ
على ابني، قالت لي:

- رأييت؟ يبتلينا الله من ناحية ويرسل لنا
قوةً تجعلنا نصبرُ من ناحيةٍ أخرى، الآن
أريد منك فقط أن تُنفذ وصية ليالٍ،
تحافظ على ابنك، تحميه وتعطيه حبك،
وتحضر له والدتهُ أخرى لأنك في عمرٍ
يستحق ذلك.

- الحمد لله على كل شيء، لا أعدك بذلك
لأنني مهما بحثتُ عن نساء لن أسمى
أية امرأة بوالدةٍ ولدي، سأجعلُ جدارَ
منزلي صورةً كاملةً لحبيبتني وأخبرُ ابني
كل يوم أن هذه والدتك، وأطلبُ منه إن



كان متعبًا في يومٍ من الأيام مثلي أن
يأتي إلى هذه اللوحة ويعانقها ليفرغَ
همه هناك لأنني هذا ما سأفعله كل يوم،
لا أريد سوى ذلك الآن، لا أريد سوى
ذلك دائمًا.

مضت الأيام، تلاشت سريعًا كالسراب،
انتهت الحرب أو بمعنى أصح توقفت
موقتًا، لأننا برأيي نعيش دائمًا وسط ألف
حرب، منها نتصر ومنها نترك أجزاءنا
بها، أعدمنا الحكومة رئيسها في تاريخ
30 ديسمبر 2006 (69 سنة) معسكر
العدالة، الكاظمية، بغداد، العراق، ودفن
في العوجة، تاريخ علمت من خلاله أن
بلدنا ستندم طيلة عمرها على هذا الرجل
سنندم كلنا لأننا لن نرى مثله بعد الآن،



العودة إلى تسجيل دخولنا في تلك
المدينة أصبح سهل، لا داعي أن أنام
مجددًا بالطرقات، أو أن أرى بيني وبين
منزلي حربًا تمنعني من الدخول، جميع
كلامي كان مهينًا للحذف بالعودة قليلًا
للماضي لكن عتبة الحاضر كان بابها
الخلفي مغلق، اضطررت أن أكون ضيفًا
في منزل المستقبل، أن أسير كالضيف
في الشتاء، كالارض التي لا تصل إليها
قطرات المطر، تحت معانٍ كثيرة،
أجدرها بالذكر هو غياب مدينتي
الأصلية، ليالٍ، فقدت قصائدي، لم أتمس
بقيت العناوين كانت الخاتمة قاسية
جعلت مني رياحًا هبت تحت قطرات
المطر، لا أعرف الأماكن التي أصل لها



لكنني في مكان أهطلُ دموعًا خارجَ إرادة
طقسي الداخليّ ربما كانت ردًا عما
يحدث داخلي، لا أعلم أو ربما فكرة ذلك
الأمر كانت أقسى من أن أدعي المعرفة،
لذلك لا أعلم ما يجعلني أمطر لكن بعد
ربيعٍ طويل أتى الشتاء فجأة، فأمطرت.

عدتُ إلى منزلي بعد ذلك الغياب، وبعد
عامٍ كامل عاد منزلي كما كان، صنعتُ
به جدارًا يحملُ صورة ليالٍ، كنتُ أظنه
كذلك فقط لكنني أيقنتُ أن هذا الجدار
يحملُ بينَ كل شبرٍ منه ليلةً من تلك
الليالي التي عشتها مع حبيبتي
وأسميتها ليالي ليالٍ لكن بقيت جدران
منزلي وفراغه يضربني ليجعلني أستيقظُ
إلى واقعي المؤلم في الموت لأعيش ليالٍ



أخرى أبدلت كلمة ليال بالحرب محتلةً
حياتي بأكملها حتى النهاية، جاعلةً
الليالي كلها، ليالي الحرب، جلستُ أمام
حبيبتي كل ليلة حتى أتت الليلة التي
يسبقها عامين، جلستُ مع حبيبتي:

- ليال، كيف حال حبيبتي؟ اشتقتُ لكِ،
كثيرًا، كثيرًا يا ليال، غدا سأتزوج يا ليال
لم أظن أن أفعل ذلك بعدك لكنني أرى
ذلك مناسبًا لابني ولتعلقه الشديد بعلياء،
لأنك ترغبين بذلك حتى رغم صعوبته
عليك لكنني لن أترككِ يا حبيبتي، سأبقى
عند الجدار هنا، أرى صورتكِ، أتذكرُ
ضحكتكِ، قد هدأتُ قليلًا لكنني لم أنسى،
لازلتُ أعود أدراجي إلى صورتكِ بين
الحين والآخر، أسمع صوتكِ يتهافتُ



ويتهافتُ بين ثنايا سمعي، أشعرُ
بامتلاء أصابعك بين فراغات يدي، لا
يزال قلبي يعزفُ لحن الوداع، لعلَّ أحد
النبضات يكون دافئًا فتعودي لكن
أتعلمين يا حبيبتي؟ لم يعد البكاء كافيًا،
أنا أريدك حقًا هنا.

بعض اللحظات تأخذُ الكثير من سنواتنا
لكن إحدى اللحظات تأخذُ عمرنا بأكمله،
تجعلنا نقفُ مرارًا وتكرارًا على عتبةِ
الماضي مستقبلين ذات الرياح التي رمت
مرساة سفينتنا هنا، غارقين في تفاصيل
الهامش الذي لم يكن لونه أبيض،
متمسكين بإحدى الغيوم لعلها تبقينا في
السماء بعد صعود أحبتنا إليها، محاولين
عدم السقوط في جرفِ النهر إلى وادٍ



بعيدٍ عن كل ذلك، نطيرُ بجناحِ هش،
تُسقطُهُ نسماتُ الهواءِ الضعيفة، صبرتُ
على كلِّ تلكَ النسماتِ حتى جاءت نسمةٌ
تُسقطني في الربيعِ الخريفيّ إلى الحياة،
آخذةً معها كل شيءٍ يصفُ الحياةَ تاركةً
ورائها فقط الموت، حاربتُ كل شيءٍ
حاربتُهُ وحدي للوصولِ إلى حياةٍ
بسيطة، منزلي، ليالٍ، ابني وأنا لكن هذه
الحياة رأت أن هذا الأمر كثيرًا عليّ،
قاتلتني الحياة بأغلى ما أملك، طعنُها
كثيراً حتى قلت:

- لا زال سيفي في الميادينِ وحيداً يَنازِعُ
قارعةَ الزمن ويضربُها لكن الزمان
يطعنني بأماكنٍ تقتلُني حياً مهما حاولتُ
لا أكادُ أصلُها.



حبيبتي ليالٍ، سأذهبُ إلى النوم لرؤيتك
هناك، أرجوكِ لا تتركيني في حلمي
وحيدًا أيضًا، أرجوكِ يا حبيبتي فالنومُ
بدونِ رؤيتك يُتعبني حقًا.

لم تخيب ظني ليالٍ، هذه من عاداتها
الجميلة لذلك رأيتها في منامي:

- ليالٍ حبيبتي، غبتِ كثيرًا عني، اشتقتُ
لكِ، أخبريني أرجوكِ كيف حالكِ؟ هل
أنتِ بخير؟ لقد عدتُ إلى منزلنا يا
حبيبتي، أعدتُ بنائه كما كان لكنكِ غائبة
تحضرُ صورتكِ بدلًا منكِ، صورتكِ التي
بجانبها أجلسُ صباحًا لشربِ قهوتي،
وظهرًا على غدائي ومساءً على شمعةٍ
وكوبٍ من الشاي، كنتُ أصنعُ لكِ كوبًا
دائمًا لأشعرُ أنكِ هنا، كنتِ معي دائمًا،



أنا اعتني بابني جيداً، لقد تعلق ابني
بفتاة تدعى علياء هي ممرضة أصبحت
تعمل الآن في ذات المشفى الذي أنا به،
سأتزوج هذه الفتاة غداً لكنني أشعر
بداخلي أنني أخونك، لا أعلم كيف
ستتظر عيني إلى امرأة غيرك؟ كيف
ستلمس يدي يداً غير يدك؟ كيف
ستغوص أصابعي في شعر آخر؟ أنا
استصعب كل ذلك يا حبيبتي، أرجوك
أخبريني فقط، أخبريني ماذا أفعل؟ لا
أريد غيرك لكنك جعلت وصيتك صعبةً
كثيراً، أنا لن أخون ذكرياتنا، سأبقى عند
صورتك مع كوب قهوتي، غدائي،
كتابتي، تأملي، راحتني، وقوفي وجلوسي
سيبقى كل شيء بقرب صورتك لأنك أنت



الأولى في حياتي، والأخيرة في موتي،
أنت من تنفضين غبار الحياة عني في
كل يوم، أنا متعب لكنني قوي، مكسور
لكنني أمشي، واقع لكنني واقف، أفتقدك
لكنك هنا، وجودك بجانبني هو سرُّ تلك
القوة والمشى والوقوف، أنا آسف يا
حبيبتي على كل شيء حصل، أنا آسف،
لا تغيبني يا حبيبتي كثيرًا، زوريني في
كل يوم، أنا أحبك كثيرًا، أحبتك، أحبك،
وسأحبك، لأنك ليالٍ، ولأنني طيبك
أحمد.

عانقتني ثم ذهبت، ابتسمت لي من بعيد،
اختفت، تلاشى ظلها، تلاشى نومي بعد
ذلك، أتى الصباح، ذهبت كعادتي إلى
صورتها بعد أن حضرتُ فجانين من



القهوة لي وليال، جلستُ أتأملُ صورتها
على لحنٍ حزينٍ يُعزفُ داخلَ عقلي، إلى
حينٍ خرجتُ من تأملي بسببِ صوتِ
الباب الذي كانَ خلفه كنان جاء ليبارك
لي ويساعدني في تحضيرِ نفسي،
أخبرني أنه قد صالحَ عائلته وأن أموره
كلها بخير، فرحتُ لذلك، جهزتُ نفسي
بعد ذلك، حانَ وقتُ الخروج، طلبتُ من
كنان أن ينتظرني في الخارجِ قليلاً ريثما
أذهبُ إلى ليالٍ قليلاً:

- مرحباً حبيبتي، هل أبدو جميلاً، لقد
عشتُ هذا اليوم من قبل لكنك أنتِ من
كنتِ خارجاً تنتظريني بالثوبِ الأبيض
الذي كنتِ أكثرَ بياضاً منه، أقسمتُ
حينها أن ذلك اليوم هو يومي الذي لن



أموت بعده إلا معك، لقد وفيتُ بقسمي
لأنني بالفعل متُّ معك، بقيَّ جسدي فقط
ترميهِ الحياة بين لحظاتها التي أنتظرُ
انتهائها بفارغِ الصبر ليلحقَ جسدي بي
إليك، حبيبتي ليالٍ سأغادرُ الآن، هيا
أذهبي معي، أذهبي معي لعننا نعيدُ إحياءَ
الحياة، لعننا نسرقُ القمرَ مرةً أخرى
لتظهر الشمس مسرعةً فتسرقُ منا
أجملَ ليلةٍ عشناها، تعالى كي نعيدَ تلكَ
الليلة إلى مجراها، أرجوكِ تعالى يا ليالٍ،
تعالى يا حبيبتي.

هنا سندتُ رأسي على جدارٍ ليالٍ باكياً،
دخلَ كنان، رأيَني، عانقني طالباً مني
الهدوءَ والتوقفَ عن البكاء، قائلاً لي:



- صديقي لا بأس أنا هنا، اهدأ، لا يمكنك
الظهور هكذا في ليلةٍ يجب أن تكون فيها
ضاحكًا لا باكياً.

- لا أستطيع يا كنان، أنا ضعيفٌ على فعل
ذلك، كيف أتزوج بعد وفاة حبيبتي، يجب أن
ينتهي العمر بعد ذلك، لا يمكنني الاستمرار.

هنا أمسكني كنان، وضع راحتيه على
خدي وقال لي:

- انفض غبار الضعف عنك الآن، اقبل
ما أنت به، من خاض حربًا لن توقفه
هكذا لحظات، نعم فقدت أحبائك، ذهبوا
من هم بمثابة الحياة لديك، لكن انظر لما
تبقى، لا تهدر ما قادم على حساب ما قد
فات، هيا خذ اغسل وجهك امسح
دموعك تلك، واخرج معي لأن عروستك



في الانتظار، وتذكر يا صديقي دائماً أنك
تفعلُ أمراً لو كانت ليالٍ تستطيعُ أن
تُكلمك لطلبت منك الاستمرار، هيا بنا يا
صديقي، هيا.

- حسناً، أنا جاهز يا صديقي لكن هل
تعلم الشخصُ منا لا يرى امرأةً مثلَ
والدته، لكنني خسرتُ والدتي، تمنيتها،
حصلتُ على ليالٍ، كانت سكينتي
وعائتي، كانت كل شيءٍ لي حتى جاءت
لحظات ينتهي بها الأمر، متمنياً والدتي
وليالٍ، اه يا صديقي، هيا بنا لنذهب، أنا
جاهز الآن.

خرجنا بعدها، حدث العرس وانتهى ثم
التقطنا صورة نهائية تجمعنا كلنا، هذه



كانت ليالي الحرب التي عشتها، أخذت
مني ليالٍ تاركةً لي الحرب.



نسمات الأدب

لنشر الإلكتروني



لن أنسى أبداً تلك الليالي التي أثلجت
فيها السماء بالقذائف على مدينة ليال،
التي كان موسمها كريماً بإعطائه في
الحشرة أيام الأخيرة من الشهر الثالث



لحام ٢٠٠٣، شهراً يحقبه الكثير من الموت، موتاً يقتل أحداً من قيد
الحياة، ويبقي الآخر ميتاً على قيدتها.

يوماً تلو يوم انتظرت، بالذن، بالألم والخوف انتظرت أن تمضي تلك
الأيام، لحالي التقى بشتاءٍ أدمع من هذا الشتاء، لكن الموت دائماً
درجة حرارته باردة، لذلك عملت أننا لا داعي أنا نموت لنشعر ببرد
الموت، يكفي أن نفقد مصدر دفئنا لنشعر بذلك طيلة ما تبقى من
الحياة، إن كانت قد بقيت أيضاً الحياة.

تمني أن تكون النهاية قد تأخرت قليلاً، لو أنها أمهلتنني للوداع
فقط، لكنها جعلتنني أفقد القطار في محطتي الأخيرة، المحطة
التي جعلت مني سماءً تمطر فوق ماء البحر، لأفقد فيه دلاوة
أيامي، ولا أجعل كلوا مهما هطلت.

حياة الحرب أتت، إلى أجمل أوقاتي لتنهيتها، وتجعل ما تبقى
من حياتي ليالٍ قصيرة، أمضي فيها جلستي التأملية في حضور
ذكرياتي الخفية بألم الواقع بعد الاستيقاظ، سميت تلك الليالي:

ليالي الحرب



مديرة الدار : رزان محمد كليب

تصميم الخلف : منى وجيه